المغني في التفسير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سُورَةُ الزُّمَرِ

(المجلَّدُ التَّاسِعُ والعشرونَ)

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتِرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.
لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

نسخة إلكترونية

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الزُّمَرِ

سُورةُ الزُّمَرِ

سُورةُ الزُّمَرِ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الزُّمَرِ).[1]

فعن عائِشةَ رَضِي اللهُ عنها أنَّها قالت: ((كان النَّبيُّ – ﷺ –لا ينامُ على فِراشِه حتَّى يَقرأَ كُلَّ لَيلةٍ ببَني إسرائيلَ والزُّمَرِ)).[2]

فضائل السورة وخصائصها:

أنَّ النبيَّ – ﷺ –كان يَقرؤُها كُلَّ لَيلةٍ:

كما جاء في حديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها السَّابقِ.

(1) سُمِّيَت السُّورةُ بذلك؛ لاشتِمالِها على الآيةِ الَّتي ذُكِرَ فيها زُمَرُ الفَريقَينِ، ولِوقوعِ هذا اللَّفظِ فيها دونَ غَيرِها مِن سُوَرِ القرآن. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (278/8)، ((تفسير ابن عاشور)) (311/23).

(2) أخرجه الترمذي (2920) واللفظ له، وأحمد (24388)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (11444).
قال الترمذي: (حسَـنٌ غريبٌ)، ووثَّق رجالَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (275/2)، وحسَّـنه ابنُ حجرٍ في ((نتائج الأفكار)) (65/3)، وجوَّد إسـنادَه ووثَّق رجالَه ابنُ باز في ((النكت على التقريب)) (172)، وصَـحَّحه الألبانيُّ في ((صـحيح سـنن الترمذي)) (2920).

سُورةُ الزُّمَرِ مَكِّيَّةٌ،(3) وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك.(4)

من أهم مقاصد هذه السورة:

إثباتُ تفَرُّدِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ، وإبطالُ الشِّركِ.

من أهم موضوعات هذه السورة:

1- التَّنويهُ بشأنِ القُرآنِ، والثَّناءُ على اللهِ تعالى الَّذي أنزَلَه على نَبيِّه - ﷺ - بالحَقِّ.

2- الأمرُ بإخلاصِ العبادةِ لله، وبَيانُ شُبهةِ الَّذين عَبَدوا غَيرَه وإبطالُها، وذِكرُ بَعضِ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّته؛ مِن خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ، وتَسخيرِه الشَّمسَ والقَمَرَ، وخَلقِ الإنسانِ... إلى غيرِ ذلك.

3- مُقارَنةٌ بيْنَ أحوالِ الكافِرينَ وأحوالِ المؤمنينَ، وبَيانُ عاقِبةِ الصَّابِرينَ.

4- ذِكرُ بَعضِ التَّوجيهاتِ للمُؤمِنينَ، وبَيانُ حُسنِ عاقِبتِهم؛ ووَعيدُ مَن عَبَد غَيرَ اللهِ، وبَيانُ ما أُعِدَّ لهم مِنَ العذابِ.

---

(3) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا آيتَينِ نزَلَتا بالمدينةِ؛ إحداهما قولُه تعالى: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ... [الزمر: 23]، والأُخرى قولُه تعالى: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا... [الزمر: 53].

وقيل: إلَّا سَبْعَ آياتٍ، مِن قَولِه تعالى: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا... [الزمر: 53] إلى آخِرِ السَّبعِ.

يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (5/113)، ((الوسيط)) للواحدي (3/569).

(4) ممَّن حكى الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/587).

5- بَيانُ بَعضِ دَلائِلِ وَحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِه.

6- ذِكرُ إنزالِ اللهِ تعالى للقُرآنِ، ومَدحُه وبيانُ حالِ المؤمِنينَ معه.

7- الحَديثُ عن بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، ومُحاجَّةِ المُشرِكينَ، وبَيانُ ما هم عليه مِن ضَلالٍ، وما لَهم مِن سُوءِ العاقِبةِ.

8- ذِكرُ حالِ الإنسانِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ.

9- ذِكرُ ما يدُلُّ على سَعةِ رَحمةِ اللهِ سُبحانَه بعِبادِه، ودَعوتُهم إلى الإنابةِ إليه قبْلَ نُزولِ العَذابِ، والنَّدَمِ على التَّفريطِ حيثُ لا يَنفَعُ النَّدَمُ.

10- عَرضُ بَعضِ مَشاهِدِ يَومِ القيامةِ وأهوالِها، وأحوالِ الكافِرينَ والمؤمِنينَ، وما أُعِدَّ لكُلٍّ منهما، وتَسبيحُ الملائِكةِ الحافِّينَ مِن حَولِ العَرشِ بحَمدِ ربِّهم، وخَتْمُ السُّورةِ بحَمدِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

سُورةُ الزُّمَرِ

الآيات (1–4)

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا
لَهُ الدِّينَ (2) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا
إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ
كَفَّارٌ (3) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ (4)

غريب الكلمات:

أَوْلِيَاءَ: أي: أصنامًا يَتولَّونَهم بعبادتِهم ودعائِهم، وأصْلُ (ولي): يدُلُّ على القُرْبِ، سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ.

زُلْفَى: أي: قُربةً ودَرَجةً ومَنزِلةً، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تَقدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ.

لَاصْطَفَى: أي: لَاختار، ولَاجتبَى، وأصلُ (صفو): خُلوصُ الشَّيءِ مِن كلِّ شَوبٍ.

تفسير الآيات:

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1).

أي: تنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ شديدِ القوَّةِ، الغالِبِ الَّذي لا يَغلِبُه شَيءٌ، والمُمتَنع عليه كلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ الحَكيمِ في شَرعِه وخَلقِه وقَدَرِه، فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائقِ به.

كما قال تعالى: وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت: 41، 42].

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (2).

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ.

أي: إنَّا أنزَلْنا إليك –يا مُحمَّدُ– القُرآنَ المُشتَمِلَ على الحَقِّ؛[5] فأخبارُه صادِقةٌ، وأحكامُه عادِلةٌ، ومِن ذلك الإخبارُ بألوهيَّةِ اللهِ، والأمرُ بعبادتِه وَحْدَه لا شَريكَ له.

(5) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٣٦٩ – ٣٧٠) في معنى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ احتمالين: الأول: «أن يكون معناه: متضمنًا الحق».
ثم وجَّهه بقوله: «أي: الحق فيه، وفي أحكامه، وفي أخباره».
الثاني: «أن يعني: الاستحقاق والوجوب، وشمول المنفعة للعالم في هدايتهم ودعوتهم إلى الله».

فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ.

أي: فاعبُدِ اللهَ مُخلِصًا له وَحْدَه في جميعِ عباداتِك الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، ولا تُشرِكْ به شَيئًا، ولا تَقصِدْ بعِبادتِك حَظًّا دُنيويًّا.

أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (3).

أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ.

أي: ألَا للهِ وَحْدَه الطَّاعةُ والعِبادةُ النَّقيَّةُ مِن شوائِبِ الشِّركِ والرِّياءِ، فهو المُستَحِقُّ وحْدَه لإفرادِه بالعبادةِ؛ فلا يَقبَلُ مِن العَمَلِ إلَّا ما كان خالِصًا له وحْدَه دونَ ما سِواه.

عن أبي أُمامةَ الباهِليِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ - ﷺ -، فقال: أرأيْتَ رَجُلًا غزا يَلتَمِسُ الأجرَ والذِّكرَ، ما لَه؟ فقال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: لا شَيءَ له! فأعادها ثلاثَ مَرَّاتٍ، يقولُ له رَسولُ اللهِ - ﷺ -: لا شَيءَ له! ثمَّ قال: إنَّ اللهَ لا يَقبَلُ مِن العَمَلِ إلَّا ما كان له خالِصًا، وابتُغِيَ به وَجهُه)).[6]

---

(6) أخرجه من طُرقٍ: النَّسائيُّ (3140) واللَّفظُ له، والطبرانيُّ (8/165) (7628).
جوَّد إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (1/40)، وابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (1/81)، وابن حجر في ((فتح الباري)) (6/35)، والصنعاني في ((سبل السلام)) (4/68)، وحسَّن إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (5/112)، وقال الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (3140): (حسَنٌ صحيحٌ).

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى.

أي: والمُشرِكونَ الَّذين اتَّخذوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ يَتولَّونَهم ويَعبُدونَهم يقولونَ: ما نَعبُدُهم إلَّا لِيُقرِّبونا إلى اللهِ قُربةً منه ومَنزِلَة في الدُّنيا.

كما قال تعالى: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [يونس: 18].

إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

أي: إنَّ اللهَ يَفصِلُ بَيْنَهم يومَ القيامةِ فيما هم فيه يَختَلِفونَ في الدُّنيا.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ.

أي: إنَّ اللهَ لا يُوَفِّقُ إلى الحَقِّ كُلَّ مَن هو كاذِبٌ على اللهِ، شَديدُ الكُفرِ به، فيَصِفُه بما لا يَليقُ به، ويتَّخِذُ مِن دُونِه أولياءَ، ويَدَّعي أنَّ عِبادتَهم تُقرِّبُهم إلى اللهِ زُلْفى!

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (4).

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ.

أي: لو أرادَ اللهُ أن يَتَّخِذَ لنَفْسِه ولَدًا لاختارَ ما يَشاءُ مِمَّا يَخلُقُه، ولم يَكِلْ ذلك إلى المُشرِكينَ لِيَختاروا له ما شاؤوا بأهوائِهم!

سُبْحَانَهُ.

أي: تنزَّهَ اللهُ عن الوَلَدِ، وعمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ مِن النَّقائِصِ والعُيوبِ.

هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ.

أي: هو اللهُ الواحِدُ في ذاتِه وأسمائِه، وصِفاتِه وأفعالِه، لا شَبيهَ له مِن خَلْقِه، ولا نِدَّ له ولا شَريكَ ولا نَظيرَ؛ وهو القَهَّارُ الَّذي قهَرَ كُلَّ شَيءٍ وغَلَبه بقُدرتِه، فذَلَّ له وخَضَع.

سُورةُ الزُّمَرِ

الآيتان (5–6)

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ
ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا
مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6)

غريب الكلمات:

يُكَوِّرُ: تكويرُ اللَّيلِ على النَّهارِ: تَغشيتُه إيَّاه حتَّى يُذهِبَ ضَوءَه، وتكويرُ النَّهارِ على اللَّيلِ: تَغشيتُه إيَّاه حتَّى يُذهِبَ ظُلمَتَه، والتَّكويرُ في اللُّغةِ: طَرحُ الشَّيءِ بَعضِه على بَعضٍ، يُقالُ: كَوَّرَ المتاعَ، أي: ألقى بعضَه على بعضٍ. وأصلُ (كور): يدُلُّ على لَفٍّ وجَمعٍ.

وَسَخَّرَ: أي: ذلَّل، والتَّسخيرُ: سياقةٌ إلى الغرضِ المختصِّ قَهْرًا، وأصلُ (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ.

تفسير الآيتين:

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5).

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ.

أي: خَلَقَ اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ السَّمواتِ والأرضَ بالأمرِ الثَّابتِ، وبالحِكمةِ والصَّوابِ والنَّفعِ؛ خَلقًا تامًّا مُتقَنًا، لا خيالَ فيه ولا سِحرَ، ولا اختِلالَ ولا عَيبَ ولا نَقصَ؛ خَلقًا دالًّا على وَحدانيَّتِه وقَهْرِه لكُلِّ شَيءٍ.

كما قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [الدخان: 38، 39].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ [المؤمنون: 115].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [الذاريات: 56].

يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ.

أي: يُغشِي اللَّيلَ النَّهارَ ويُديرُه عليه حتَّى يَذهبَ ضوؤُه، ويُغشِي النَّهارَ اللَّيلَ ويُديرُه عليه حتَّى تَذهبَ ظُلمتُه، وسَخَّرهما يَجْريانِ مُتَعاقِبَيْنِ.

كما قال تعالى: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا [الأعراف: 54].

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى.

أي: وذلَّل اللهُ الشَّمسَ والقَمَرَ، كلَّ واحِدٍ مِنهما يَسيرُ سَريعًا في مَنازِلِه لِوَقتٍ مَعلومٍ عندَ اللهِ تعالى.(7)

أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ.

أي: ألَا إنَّ اللهَ الَّذي خَلَقَ هذه المخلوقاتِ وسَخَّرها لعِبادِه: هو شديدُ القوَّةِ، الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ الغَفَّارُ الَّذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها.

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6).

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ.

أي: خلَقَكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ- مِن نَفْسٍ واحِدةٍ، وهي آدَمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ [الأنعام: 98].

---

(7) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٣٧٢) في الأجل المسمى احتمالين آخرين: الأول: «أن يريد: أوقات مغيبها كل يوم وليلة».
والثاني: «أن يريد: أوقات رجوعها إلى قوانينها؛ كل شهر في القمر، وكل سنة في الشمس».

ثُمَّ جعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا.

أي: ثمَّ خلَقَ اللهُ مِن آدمَ زَوجتَه.(8)

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً [النساء: 1].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله - ﷺ -: ((استَوصوا بالنِّساءِ؛ فإنَّ المرأةَ خُلِقَت مِن ضِلَعٍ، وإنَّ أعْوَجَ شَيءٍ في الضِّلَعِ أعلاه، فإنْ ذهَبْتَ تُقيمُه كسَرْتَه، وإنْ ترَكْتَه لم يَزَلْ أعوَجَ؛ فاستَوصوا بالنِّساءِ)).(9)

وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ.

أي: وأنزَلَ اللهُ لكم مِنَ الأنعامِ ثمانيةَ أزواجٍ، وهي الذُّكورُ والإناثُ مِن الإبِلِ، والبَقَرِ، والضَّأنِ، والمَعْزِ.

(8) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٣٧٣) في معنى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنها زَوْجَها﴾ قولين: الأول: «أنها خُلقت من ضِلعه القُصيري».
وعلَّق عليه بقوله: «ويؤيد هذا الحديثُ الذي فيه: «إنّ المرأة خُلقت من ضِلع أعوج، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته».
الثاني: ونقله عن فرقة: أنها خُلقت من نفس طين آدم - عليه السلام -، ثم رجَّح الأول قائلًا: «والأول أصح».
ولم يذكر مستندًا.
(9) رواه البخاريُّ (3331) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (1468).

كما قال تعالى: ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ [الأنعام: 143، 144].

يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ.

أي: يخلُقكم اللهُ –أيُّها النَّاسُ– في بُطونِ أُمَّهاتِكم طَورًا بعدَ طَورٍ.(10)

كما قال تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ [المؤمنون: 12 – 14].

---

(10) اختُلف في معنى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ﴾ في هذه الآية على قولين: الأول: يبتدئ خلقكم –أيُّها الناس– في بطون أمهاتكم خلْقًا من بعد خلْق: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة.

الثاني: يخلقكم في بطون أمهاتكم من بعد خَلْقِه إيّاكم في ظهر آدم.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٠/ ١٦٥) –مستندًا إلى دلالة ظاهر الآية، والنظائر– القول الأول، وهو قول ابن عباس وما في معناه، وعلَّل ذلك بقوله: «لأن الله –جلَّ وعزَّ– أخبر أنه يخلقنا خلقًا من بعد خَلْقٍ في بطون أمهاتنا في ظلمات ثلاث، ولم يخبر أنه يخلقنا في بطون أمهاتنا من بعد خلْقنا في ظهر آدم، وذلك نحو قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسانَ مِن سُلالَةٍ مِن طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ* ثُمَّ خَلَقْنا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ الآية [المؤمنون: ١٢، ١٣، ١٤]».

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حدَّثَنا رَسولُ اللهِ - ﷺ -، وهو الصَّادِقُ المصدوقُ، قال: ((إنَّ أحدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ أمِّه أربعينَ يومًا، ثمَّ يَكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَكونُ مُضغةً مِثلَ ذلك)).[11]

فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ.

أي: يَخلُقُكم اللهُ في ظُلمةِ بَطنِ الأمِّ، وظُلمةِ الرَّحِمِ، وظُلمةِ المَشيمةِ الَّتي تكونُ على الجَنينِ.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ [آل عمران: 5، 6].

ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ.

أي: ذلكم العَليُّ العَظيمُ الَّذي فَعَل كُلَّ ما تقدَّم ذِكرُه: اللهُ المتَّصِفُ بصِفاتِ الكَمالِ، رَبُّكم الخالِقُ الرَّازِقُ المدَبِّرُ، له وَحْدَه مُلْكُ كُلِّ شَيءٍ، والمتصَرِّفُ وحْدَه في كُلِّ شَيءٍ كما يَشاءُ سُبحانَه.

كما قال تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [آل عمران: 26، 27].

---

(11) رواه البخاري (3208) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (2643).

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو وَحْدَه لا شَريكَ له، ولا تَنبغي العبادةُ لِغَيرِه.

فَأَنَّى تُصْرَفُونَ.

أي: فمِن أيِّ جِهةٍ تَضِلُّونَ عن الحَقِّ؟! وكيف يَصرِفُكم صارِفٌ عنه بعدَ هذا البيانِ وتلك الدَّلائِلِ الوَاضِحةِ؟!

سُورةُ الزُّمَرِ

الآيتان (7–8)

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ
وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
(7) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو
إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ
النَّارِ (8)

غريب الكلمات:

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى: أي: لا تَحمِلُ نَفسٌ آثِمَةٌ إثْمَ نَفْسٍ أُخرَى، ولا تُؤخَذُ نَفْسٌ بذَنْبِ غيرِها، والوِزْرُ: الإثمُ والثِّقْلُ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقْلِ في الشَّيءِ.

خَوَّلَهُ: أي: أعطاه ومَلَّكه، وأصلُ (خول): يدُلُّ على تَعهُّدِ شَيءٍ.

أَنْدَادًا: أي: أمثالًا، ونُظَرَاءَ، وشُرَكاءَ، وحَقيقةُ النِّدِّ: المِثْلُ المُناوِئُ المُخالِفُ، وأصلُه مِن قَولِهم: ندَّ: إذا نَفَر؛ ولهذا يُقالُ للضِّدِّ: نِدٌّ، ثمَّ استُعمِلَ في المِثْلِ وإن لم يكُنْ هناك مُخالَفةٌ.

تفسير الآيتين:

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7).

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ.

أي: إنْ تَكفُروا باللهِ فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن إيمانِكم به، وعبادتِكم إيَّاه، فلا يَنفَعُه إيمانُكم وطاعتُكم، ولا يَضُرُّه كُفرُكم ومَعصيتُكم؛ فهو الغَنيُّ عن كُلِّ ما سِواه.

كما قال تعالى: وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ [إبراهيم: 8].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ - ﷺ - فيما رَوى عن اللهِ تبارك وتعالى أنَّه قال: ((يا عِبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجَرِ قَلبِ رجُلٍ واحِدٍ، ما نَقَص ذلك مِن مُلْكي شَيئًا)).(12)

---

(12) رواه مسلم (2577).

وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ.

أي: ولا يَرضَى اللهُ لعِبادِه أن يَكفُروا به، ولا يُحِبُّ ذلك.(13)

وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ.

أي: وإن تَشكُروا ربَّكم بالإيمانِ به وتوحيدِه وطاعتِه، يَرْضَ شُكرَكم له، ويُحِبَّه منكم، ويُثِبْكم عليه.

كما قال تعالى: مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا [النساء: 147].

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى.

أي: ولا تَحمِلُ نَفْسٌ آثمةٌ إثمَ نَفْسٍ غَيرِها؛ فكُلُّ إنسانٍ يُجازَى بعَمَلِه، ولا يَحمِلُ ذَنْبَ غَيرِه.

---

(13) اختُلف في معنى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ على قولين: الأول: أن ذلك خاصٌّ ببعض الناس، والمعنى: إن تكفروا –أيُّها المشركون– بالله فإن الله غنيٌّ عنكم، ولا يرضى لعباده المؤمنين الذين أخلصهم لعبادته وطاعته الكفر.

الثاني: أن ذلك عامٌّ لجميع الناس، والمعنى: أيها الناس، إن تكفروا فإن الله غني عنكم، ولا يرضى لكم أن تكفروا به.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٠/ ١٦٩) مستندًا إلى عموم اللفظ: «ما قال الله –جلَّ ثناؤه–: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ بالله، أيُّها الكفار به، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن إيمانكم وعبادتكم إياه، ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ بمعنى: ولا يرضى لعباده أن يكفروا به، كما يقال: لستُ أُحِبُّ الظلمَ، وإن أحببتُ أن يظلِمَ فلانٌ فلانًا فيعاقب». ونقل ابنُ عطية (٧/ ٣٧٤ – ٣٧٥) القول الأول عن ابن عباس، فقال: «هذه الآية مخاطبة للكفار الذين لم يُرِد الله أن يطهِّر قلوبهم، وعباده هم المؤمنون».

ثم ذكر القول الثاني قائلًا: «ويحتمل أن تكون مخاطبة لجميع الناس؛ لأن الله تعالى غنيٌّ عن جميع الناس وهم فقراء إليه».

ثم ذكر اختلاف المفسرين من أهل السنة في معنى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ على قولين: الأول: أن «الرضى بمعنى الإرادة، والكلام ظاهره العموم، ومعناه: الخصوص فيمن قضى الله له بالإيمان وحَتَمَه له».

ثم وجَّهه بقوله: «فعباده –على هذا– ملائكته ومؤمنو البشر والجن، وهذا يتركَّب على قول ابن عباس».

الثاني: «الكلام عموم صحيح، والكفر يقع ممن يقع بإرادة الله تعالى، إلا أنه بعد وقوعه لا يرضاه دينًا لهم».

ثم وجَّهه بقوله: «وهذا يتركَّب على الاحتمال الذي تقدم آنفًا».

كما قال تعالى: مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [الإسراء: 15].

وعن عمرِو بنِ الأحوَصِ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله – ﷺ – يقولُ في حجَّةِ الوَداعِ: ((ألا لا يجني جانٍ إلَّا على نفسِه،[14] لا يجني والدٌ على ولدِه، ولا مولودٌ على والدِه)).[15]

وعن أبي رِمْثةَ رضي الله عنه، قال: ((انطلقتُ مع أبي نحوَ النبيِّ – ﷺ –، ثمَّ إنَّ رسولَ الله – ﷺ – قال لأبي: ابنُكَ هذا؟ قال: إي وربِّ الكعبةِ،... ثمَّ قال – ﷺ –: أما إنَّه لا يَجني عليك ولا تَجني عليه.[16] وقرَأ رسولُ الله – ﷺ – وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى...)).[17]

---

(14) الجناية: الذَّنْبُ والجُرْمُ وما يفعلُه الإنسانُ ممَّا يُوجِبُ عليه العذابَ أو القِصاصَ في الدُّنيا والآخرةِ.

والمعنَى: أنَّه لا يُطالَبُ بجنايةِ غيرِه مِن أقارِبِه وأباعِدِه، فإذا جنَى أحدُهما جِنايةً لا يُعاقَبُ بها الآخَرُ، كقولِه تعالَى: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى.

ينظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير(1/309).

(15) أخرجه الترمذي (3087) مطولًا، وابن ماجه (2669)، وأحمد (16064).

قال الترمذي: (حسن صحيح)، وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (6/179)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (2669)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (16064)، وحسَّن إسناده ابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (663).

(16) أي: إنْ جَنَى لم تُؤْخَذْ بجنايتِه، وإنْ جَنيْتَ لم يُؤخَذْ بجنايتِك.

يُنظر: ((المسائل والأجوبة)) لابن قتيبة (ص: 106).

(17) أخرجه أبو داود (4495) واللفظ له، وأحمد (7109)، وابن حبان في ((صحيحه)) (5995) وأخرجه النسائي (4832) مختصرًا.

صحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (5/23)، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (117)، وابن الملقن في ((البدر المنير)) (8/473)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4495)، وصحَّح إسنادَه: الحاكم في ((المستدرك)) (3590)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (12/75)، وشعيب الأرناؤوط –على شرط مسلم– في تخريج ((مسند أحمد)) (7109).

ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ.

أي: ثمَّ إلى ربِّكم وَحْدَه مَصيرُكم بعدَ مَوتِكم، فيُخبِرُكم يومَ القيامةِ بما كُنتُم تعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ.

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

أي: إنَّ اللهَ عَليمٌ بما تُضمِرُه صُدورُ العبادِ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن ذلك.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8).

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ.

أي: وإذا أصاب الإنسانَ كَربٌ وشِدَّةٌ دعا ربَّه؛ لِيَكشِفَ عنه ضُرَّه، راجِعًا إليه وَحْدَه، مُعرِضًا عمَّا سِواه.

كما قال تعالى: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا [الإسراء: 67].

وقال عزَّ وجلَّ: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ [فصلت: 51].

ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ.

أي: ثمَّ إذا منحه اللهُ نِعمةً مِنه[18] نَسِيَ الضُّرَّ الَّذي كان يَتضَرَّعُ إلى رَبِّه أن يَكشِفَه عنه، واستمَرَّ على شِركِه![19]

كما قال تعالى: وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ [يونس: 12].

---

(18) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٣٧٦) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنهُ﴾ احتمالين، فقال: «يُحتمل أن يريد: في كشف الضر المذكور، أو يريد: أيَّ نعمة بانت».

وعلَّق عليهما بقوله: «واللفظ يعُمُّهما».

(19) نقل ابن جرير (٢٠/ ١٧٢)، وابن عطية (٧/ ٣٧٧) في «ما» من قوله تعالى: ﴿نَسِيَ ما كانَ يَدْعُو إلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ قولين: الأول: أن ﴿ما﴾ مصدرية.

ووجَّهه ابنُ عطية بقوله: «والمعنى: نسيَ دعاءَه إليه في حال الضرر، ورجع إلى كفره».

ووجَّهه ابنُ تيمية (٥/ ٣٨٤) بأن «تقديره: نسي كونه يدعو الله إلى حاجته، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَلَمّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]».

ثم استدرك عليه قائلًا: «لكن على هذا يبقى الضمير في ﴿إليه﴾ عائدًا على غير مذكور، بخلاف ما إذا جُعلت بمعنى: الذي، فإن التقدير: نسي حاجته الذي دعاني إليها من قبل، فنسي دعاءه الله الذي كان سبب الحاجة».الثاني: أن ﴿ما﴾ بمعنى: الذي، والمراد بها الله.

ووجَّهه ابنُ عطية بقوله: «وهذا كنحو قوله: ﴿ولا أنْتُمْ عابِدُونَ ما أعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣]، وقد تقع ما» مكان «من» فيما لا يُحصى كثرةً من كلامهم".

ثم زاد ابنُ عطية احتمالين آخرين: أحدهما: «أن تكون ﴿ما﴾ نافية، ويكون قوله: ﴿نَسِيَ﴾ كلامًا تامًّا، ثم نفى أن يكون دعاء هذا الكافر خالصًا لله ومقصودًا به من قبل النعمة، أي: في حال الضُّر».

والآخر: «أن تكون ﴿ما﴾ نافية، ويكون قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ يريد: من قَبْل الضرر».

ثم وجَّهه بقوله: «فكأنه يقول: لم يكن هذا الكافر يدعو في سائر زمنه قبل الضرر، بل أجأه ضرره إلى الدعاء».

وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ.

أي: وجعَلَ شُرَكاءَ للهِ مِن الأصنامِ أو غيرِها، فيَعبُدُهم؛ ليُضِلَّ غيرَه عن طريقِ اللهِ، الموصِلِ إليه وإلى رِضوانِه.[20]

القراءات ذات الأثر في التفسير:

1- قِراءةُ: لِيَضِلَّ على معنى: أنَّه يَضِلُّ بنَفْسِه.[21]

2- قِراءةُ: لِيُضِلَّ على معنى: أنَّه يُضِلُّ غيرَه.[22]

---

(20) اختُلف في صفة جعْلهم الشركاء لله أندادًا على قولين: الأول: جعلوها له أندادًا في طاعتهم إيّاهم في معاصي الله.

وهو قول السُّدّيّ.

الثاني: جعلوها لله أندادًا في عبادتهم إيّاها.

ذكره ابنُ جرير، ولم ينسبه.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٠/ ١٧٣) مستندًا إلى السياق القولَ الثاني، وعلَّل ذلك بقوله: «لأن ذلك في سياق عتاب الله إيّاهم على عبادتها».

(21) قرأ بها: ابنُ كثير، وأبو عَمرٍو، ورُوَيسٌ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/299).

واختُلِف عن رُوَيسٍ؛ فروى التَّمَّارُ مِن كلِّ طُرُقِه إلّا طريقَ أبي الطَّيِّبِ بفتحِ الياءِ، ومِن طريقِ أبي الطَّيِّبِ بضَمِّ الياءِ.

يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 619).

(22) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/299).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 620).

ويُنظر أيضًا: ((معاني القراءات)) للأزهري (1/383).

قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- لهذا الإنسانِ الَّذي تلك حالُه وطريقتُه: عِشْ مُتمَتِّعًا بكُفرِك يَسيرًا مُدَّةَ حياتِك الفانيةِ، إنَّك في الآخرةِ مِن أهلِ النَّارِ المُلازِمينَ لها أبدًا.

كما قال تعالى: وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ [إبراهيم: 30].

قال ابن عثيمين: (وهاتانِ القِراءتانِ كِلْتاهما صحيحةٌ، وكلُّ واحدةٍ تُفيدُ معنًى يُكملُ معنَى الأخرى؛ فهو يَضِلُّ بنفْسِه، ويُضِلُّ غيرَه أيضًا...

فمجموعُ القِراءتَينِ فيهما فائدةٌ لا تحصُلُ بانفرادِ إحداهما).

((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: 85).

سُورةُ الزُّمَرِ

الآيتان (9–10)

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي
الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9) قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا
اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ
أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10)

غريب الكلمات:

قَانِتٌ: أي: دائِمُ الطَّاعةِ، أو: مُصَلٍّ، أو: قائِمٌ في صلاتِه، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دينٍ.

آنَاءَ اللَّيْلِ: أي: ساعاتِ اللَّيلِ، وأصلُه: يدُلُّ على ساعةٍ مِن الزَّمانِ.

أُولُو الْأَلْبَابِ: أي: أصحابُ العقولِ الزَّكيَّةِ، ومفردُ ألبابٍ: لُبٌّ، وأصلُ اللُّبِّ: الخُلوصُ والجَوْدةُ، والشَّيءُ المُنتقَى.

تفسير الآيتين:

أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9).

أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ.

أي: أذَلِكَ الكافِرُ الَّذي يَتمتَّعُ بكُفرِه قَليلًا وهو مِن أصحابِ النَّارِ خَيرٌ أم المُطيعُ لله، المُصَلِّي ساعاتِ اللَّيلِ ساجِدًا وقائِمًا، وهو على حَذَرٍ وخَوفٍ مِن الآخرةِ، ورَجاءٍ وطَمَعٍ في نَيلِ رَحمةِ اللهِ تعالى؟

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا [الفرقان: 64].

وقال سُبحانَه: لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ [آل عمران: 113].

وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله – ﷺ –: ((أفضَلُ الصَّلاةِ طُولُ القُنوتِ)).[23]

---

(23) رواه مسلم (756).

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - دخل على شابٍّ وهو في الموتِ، فقال: كيف تَجِدُك؟ قال: واللهِ يا رَسولَ اللهِ، إنِّي أرجو اللهَ، وإنِّي أخافُ ذُنوبي! فقال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: لا يجتَمِعانِ في قَلبِ عَبدٍ في مِثلِ هذا الموطِنِ إلَّا أعطاه اللهُ ما يَرجو، وآمَنَه ممَّا يَخافُ)).(24)

القراءات ذات الأثر في التفسير:

1- قِراءةُ: أَمَنْ بتخفيفِ الميمِ. وهي همزةُ الاستِفهامِ دَخَلَتْ على (مَنْ) بمعنى (الَّذي)، والاستِفهامُ للتَّقريرِ، ومُقابِلُه مَحذوفٌ تقديرُه: أمَنْ هو قانتٌ كمَنْ جعَلَ للهِ أندادًا؟ أو أَمَنْ هو قانِتٌ كغيرِه؟ وقيل: الهَمزةُ للنِّداءِ، و(مَنْ) مُنادى، أي: يا مَن هو قانتٌ، قُلْ كَيْتَ وكَيْتَ، أو أبشِرْ؛ إنَّك مِن أهلِ الجنَّةِ.(25)

2- قِراءةُ: أَمْ مَنْ بتَشديدِ الميمِ، على إدخالِ (أم) على (مَن) الموصولةِ، وإدغامِ الميمِ. وفي (أم) قولانِ؛ أحدُهما: أنَّها مُتَّصِلةٌ، ومُعادِلُها محذوفٌ تقديرُه: آلكافِرُ خيرٌ أم الَّذي هو قانِتٌ؟ وقيل: (أم) في أَمْ مَنْ مُنقَطِعةٌ، فتتقَدَّرُ بـ (بل والهمزةِ) أي: بل أمَنْ هو قانِتٌ كغيرِه، أو كالكافِرِ المَقولِ له: تمَتَّعْ بكُفْرِك؟(26)

---

(24) أخرجه الترمذي (983) واللَّفظ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (10901)، وابنُ ماجه (4261).
حسَّنه ابنُ العربيّ في ((عارضة الأحوذي)) (370/2)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (983)، وجوَّد إسنادَه النوويُّ في ((الخلاصة)) (902/2)، وابنُ المُلَقِّنِ في ((تحفة المحتاج)) (582/1)، والصَّنعانيُّ في ((سبل السلام)) (144/2).

(25) قرأ بها ابنُ كثير، ونافعٌ، وحمزةُ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (362/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 308، 309)، ((معاني القراءات)) للأزهري (335/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 620، 621)، ((تفسير القرطبي)) (238/15)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (414/9).

(26) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (362/2).

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: قُلْ –يا مُحمَّدُ–: هل يَستوي العُلَماءُ بدِينِ اللهِ العامِلونَ بعِلمِهم، القانِتون لِرَبِّهم، مع الجُهَّالِ الَّذين لا يَعلَمونَ ذلك، ولا يَعمَلونَ به؟ كلَّا، لا يَستَوون.

كما قال تعالى: أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ [الرعد: 19].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ [المجادلة: 11].

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ.

أي: إنَّما يَتذكَّرُ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ، فيَتَّبِعونَ الحَقَّ، ويُؤْثِرون العِلمَ على الجَهلِ، وطاعةَ اللهِ على مَعصيتِه.

كما قال تعالى: الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ [الزمر: 18].

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 308، 309)، ((معاني القراءات)) للأزهري (335/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 620، 621)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (414/9).

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10).

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ.

أي: قُلْ –يا مُحَمَّدُ– لِعباديَ المؤمِنينَ: اتَّقوا ربَّكم، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه.

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ.

أي: للَّذين أحسَنوا العَمَلَ في هذه الحياةِ الدُّنيا حَسَنةٌ.(27)

كما قال تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ [البقرة: 201، 202].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ [الأعراف: 156].

وقال الله عزَّ وجلَّ: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ [النحل: 30].

---

(27) اختُلف في معنى: «الحسنة» على قولين: الأول: أنها الجنة والنعيم.

الثاني: أنها العافية والطهور وولاية الله تعالى.

وعلَّق ابنُ عطية (٧/ ٣٨١) على القول الثاني، وهو قول السُّدِّي، بقوله: «وكان قياس قوله أن يكون ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ متأخرًا، ويجوز تقديمه».

ثم رجَّح الأول قائلًا: «والقول الأول أرجح، وهو أن الحسنة في الآخرة».

ولم يذكر مستندًا.

وقال تبارك وتعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً [النحل: 97].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله – ﷺ –: ((إنَّ اللهَ لا يَظلِمُ مُؤمِنًا حَسَنةً، يُعطَى بها في الدُّنيا، ويُجزَى بها في الآخِرةِ، وأمَّا الكافِرُ فيُطعَمُ بحَسَناتِ ما عَمِلَ بها لله في الدُّنيا، حتَّى إذا أفضَى إلى الآخِرةِ لم تكُنْ له حَسَنةٌ يُجزَى بها)).[28]

وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ.

أي: وأرضُ اللهِ فَسيحةٌ،[29] فمَن لم يَستَطِعْ أن يَعبُدَ اللهَ في أرضٍ فلْيُهاجِرْ إلى أُخرى يَتمَكَّنُ فيها مِن إقامةِ دينِه؛ فلا عُذرَ لأحَدٍ في تَرْكِ الهِجرةِ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا [النساء: 97].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ [العنكبوت: 56].

إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

---

(28) رواه مسلم (2808).

(29) نقل ابنُ عطية (٧/ ٣٨١) عن قوم: أن المراد بالأرض هنا: الجنة.
ثم انتقده مستندًا إلى عدم الدليل قائلًا: «وفي هذا القول تحكُّم لا دليل عليه».

أي: إنَّما يُعطَى الصَّابِرونَ على البَلاءِ، وعلى طاعةِ اللهِ وعن مَعصيتِه: ثَوابًا تامًّا كثيرًا، بغيرِ حَدٍّ ولا عَدٍّ.(30)

---

(30) معنى قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسابٍ﴾: «أن أجور الصابرين توفّى بغير حصر ولا عدٍّ، بل جزافًا».

ثم علَّق عليه ابنُ عطية (٧/ ٣٨١ – ٣٨٢) بقوله: «وهذه استعارة للكثرة التي لا تُحصى...

وإلى هذا التأويل ذهب جمهور المفسـرين، حتى قال قتادة: ما ثَمَّ –واللهِ– مكيال ولا ميزان، وفي بعض الحديث أنه لما نزلت: ﴿واللَّهُ يُضاعِفُ لِمَن يَشاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] قال –عليه الصلاة والسلام–: «اللهم، زِدْ أُمَّتي».

فنزلت: ﴿فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فقال: «اللهم، زِدْ أُمَّتي».

فنزلت هذه الآية، فقال: «رضيتُ، يا رب»».

ثم ذكر (٧/ ٣٨١) احتمالًا آخر في معنى الآية: «أن الصابر يوفّى أجره، ثم لا يحاسب عن النعيم، ولا يُتابَع بذنوب».

ثم وجَّهه بقوله: «فيقع ﴿الصّابِرُونَ﴾ في هذه الآية على الجماعة التي ذكرها النبي –عليه الصلاة والسلام– أنها تدخل الجنة بغير حساب، وفي قوله: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب، الذين لا يتطيَّرون ولا يَكْتَوُون ولا يَسْتَرْقُون، وعلى ربهم يتوكلون، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر...» الحديثَ على اختلاف ترتيباته».

سُورةُ الزُّمَرِ

الآيات (11-16)

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12)
قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (14)
فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا
ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ
اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (16)

غريب الكلمات:

ظُلَلٌ: أي: أطباقٌ وسُرادِقاتٌ، والظُّلَّةُ: شَيءٌ مُرتَفِعٌ مِن بِناءٍ أو أعوادٍ، يَستَظِلُّ به الجالِسُ تَحتَه، وأصلُ (ظلل): يدُلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشَيءٍ.

تفسير الآيات:

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11).

أي: قُلْ –يا مُحَمَّدُ: إنِّي أُمِرتُ بإفرادِ اللهِ تعالى وَحْدَه في جَميعِ عِباداتي الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، وإخلاصِها له؛ فلا ينبغي أن أُشرِكَ به شَيئًا.

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ [الرعد: 36].

وقال سُبحانَه: إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [النمل: 91].

وقال عزَّ وجلَّ: قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [غافر: 66].

وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12).

أي: وأُمِرتُ بإفرادِه بالعبادةِ؛ لأجْلِ أن أكونَ بذلك أوَّلَ المُسلِمينَ.

كما قال الله تعالى: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: 14].

وقال سُبحانَه: وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [النمل: 91].

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13).

أي: قُلْ: إنِّي أخافُ إن عَصَيتُ ربِّي فيما أمَرَني به مِن تَوحيدِه وإخلاصِ العِبادةِ له: عذابَ يومِ القيامةِ.

كما قال تعالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [يونس: 15].

قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (14).

أي: قُلِ: اللهُ وَحْدَه أُفرِدُه بعبادتي، وأُخلِصُ له في طاعتي، ولا أُشرِكُ به شَيئًا.

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ [الأنعام: 161 – 163].

فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15).

فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ.

أي: فاعبُدوا -أيُّها المُشركونَ- مِن دُونِ اللهِ أيَّ شَيءٍ شِئتُموه مِنَ الأوثانِ أو غيرِها؛ اتّباعًا لأهوائِكم بلا بُرهانٍ.

كما قال الله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ [الكافرون: 1 – 6].

قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: إنَّ الخاسِرينَ حَقيقةً هم الَّذين خَسِروا أنفُسَهم بحِرمانِها مِنَ الجنَّةِ، واستِحقاقِها دُخولَ النَّارِ، وخَسِروا أهليهم يومَ القيامةِ كذلك.

أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.

أي: ألَا إنَّ خُسرانَ المُشرِكينَ أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامةِ هو الخُسرانُ الواضِحُ الَّذي لا خُسرانَ مِثلُه.

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (16).

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ.

أي: للخاسِرينَ يومَ القيامةِ أطباقٌ مِن النَّارِ مِن فَوقِهم ومِن تَحتِهم، محيطةٌ بهم، تلتهِبُ عليهم.

كما قال سُبحانَه: يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [العنكبوت: 55].

ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ.

أي: ذلك الَّذي أخبَرَ اللهُ به مِن عذابِ الخاسِرينَ يومَ القيامةِ: يُخَوِّفُ به عِبادَه.

يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ.

أي: فاتَّقوا اللهَ يا عبادَ اللهِ، بامتِثالِ ما أمَر، واجتِنابِ ما نَهَى عنه وزَجَر؛ للنَّجاةِ مِن سَخَطِه وعَذابِه.

سُورةُ الزُّمَرِ

الآيات (17–20)

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (17) الَّذِينَ
يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (18)
أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ
غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (20)

غريب الكلمات:

الطَّاغُوتَ: الطَّاغوتُ هو كُلُّ ذِي طُغْيانٍ على اللهِ، فكلُّ معبودٍ مِن دُونِ اللهِ إذا لم يَكُنْ كارِهًا لذلك: طاغوتٌ؛ إنسانًا كان ذلك المعبودُ، أو شيطانًا، أو وَثَنًا، أو صَنمًا، كائِنًا ما كان مِن شَيءٍ، والمُطاعُ في معصيةِ اللهِ طاغوتٌ، وكذلك السَّاحِرُ والكاهِنُ، واشتِقاقُه مِن الطُّغيانِ: وهو الظُّلْمُ والبَغْيُ، وأصلُه: يدُلُّ على مُجاوَزةِ الحَدِّ في العِصيانِ.

وَأَنَابُوا: أي: تابوا ورَجعوا، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على الرُّجوعِ.

حَقَّ: أي: وجَب ولَزِمَ، والحَقُّ في أصلِه: المُطابَقةُ والموافَقةُ، وأصلُ (حَقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه.

غُرَفٌ: أي: مَنازِلُ عاليةٌ في الجنَّةِ، جمْعُ غُرفةٍ: وهي العُلِّيَّةُ المُشرِفةُ.

تفسير الآيات:

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (18).

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى.

أي: والَّذين ابتَعَدوا عن عبادةِ الطَّاغوتِ، وتابوا إلى اللهِ تعالى مِنَ الشِّركِ والعِصيانِ، وأقبلوا على طاعةِ الرَّحمنِ: لهم البُشرى بالخَيرِ في الدُّنيا والآخِرةِ.

كما قال الله تعالى: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النحل: 36].

فَبَشِّرْ عِبَادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ...

أي: فبَشِّرْ –يا محمَّدُ– عِباديَ الَّذين يَستَمِعونَ القَولَ فيَتَّبِعونَ أحسَنَ ما فيه.[31]

---

(31) اختُلف في معنى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ على أقوال: الأول: أنه لا إله إلا الله.

الثاني: أنه الرجل يجلس مع القوم فيسمع كلامهم، فيعمل بالمحاسن ويحدّث بها، ويَكُف عن المساوئ ولا يُظهرها.

الثالث: أنه طاعة الله.

وذكر ابنُ عطية (٧/ ٣٨٤) قولين آخرين: أنّ أحسن القول كتاب الله تعالى، ثم وجَّهه بقوله: «أي: إذا سمعوا الأقاويل وسمعوا القرآن اتبعوا القرآن».

وذكر أيضًا أنّ أحسنه: ما فيه مِن عفو وصفح واحتمال على صبر ونحو ذلك.

كما قال تعالى عن موسى: وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا [الأعراف: 145].

وقال عزَّ وجلَّ: وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ [الزمر: 55].

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ.

أي: أولئك العِبادُ العالو المَنزِلةِ والرُّتبةِ: هم الَّذين أرشَدَهم اللهُ ووفَّقَهم لِمَعرفةِ الحَقِّ والعَمَلِ به.

عن عليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ – ﷺ –، ((أنَّه كان إذا قامَ إلى الصَّلاةِ، قال: وَجَّهْتُ وجهِيَ لِلَّذي فطَرَ السَّمواتِ والأرضَ حَنيفًا، وما أنا مِن المشركينَ، إنَّ صَلاتي، ونُسُكِي، ومَحْيايَ، ومَماتي للهِ رَبِّ العالَمينَ، لا شريكَ له، وبذلك أُمِرْتُ وأنا مِن المسلمينَ، اللَّهُمَّ أنت المَلِكُ لا إلهَ إلَّا أنت، أنت رَبِّي، وأنا عبْدُكَ، ظَلَمْتُ نفْسي، واعترَفْتُ بذَنْبي، فاغفِرْ لي ذُنوبي جميعًا، إنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ، واهْدِني لأحسَنِ الأخلاقِ لا يَهدي لأحسَنِها إلَّا أنت، واصْرِفْ عنِّي سَيِّئَها لا يَصْرِفُ عنِّي سَيِّئَها إلَّا أنت، لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، والخَيرُ كلُّه في يدَيكَ، والشَّرُّ ليس إليكَ، أنا بك وإليكَ، تبارَكْتَ وتَعالَيْتَ، أستغفِرُك وأتوبُ إليكَ...)).[32]

وذكر (٧/ ٣٨٣) أن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾: «كلام عامٌّ في جميع الأقوال، وإنما القصد الثناء على هؤلاء في نفوذ بصائرهم، وقوام نَظَرِهم، حتى أنهم إذا سمعوا قولًا ميَّزوه واتبعوا أحسنه».

ثم وجَّه الأقوال الثلاثة الأخيرة بكونها أمثلةً داخلة في المعنى العام الذي ذكره.

(32) أخرجه مسلم (771).

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان النَّبيُّ – ﷺ – إذا استفتَحَ الصَّلاةَ كبَّرَ، ثمَّ قال: إنَّ صَلاتي ونُسُكي ومَحْيايَ ومَماتي للهِ رَبِّ العالَمينَ، لا شَريكَ له، وبذلك أُمِرتُ وأنا مِنَ المُسلِمينَ، اللَّهُمَّ اهدِني لأحسَنِ الأعمالِ وأحسَنِ الأخلاقِ، لا يَهدي لأحسَنِها إلَّا أنتَ، وقِني سَيِّئَ الأعمالِ وسَيِّئَ الأخلاقِ، لا يَقِي سَيِّئَها إلَّا أنت)).(33)

وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ.

أي: وأولئك هم أصحابُ العُقولِ الصَّحيحةِ، الَّذين انتَفَعوا بها في مَعرِفةِ الحقِّ واتِّباعِه.

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19).

أي: أفمَنْ وَجَب عليه العَذابُ في سابقِ عِلمِ اللهِ لِكُفرِه تَقدِرُ –يا محمَّدُ– على هدايتِه في الدُّنيا، وإنقاذِه مِن النَّارِ يومَ القيامةِ؟!

كما قال تعالى: لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [يس: 7].

وقال سُبحانَه: أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ [فصلت: 40].

---

(33) أخرجه النَّسائي (896) واللَّفظُ له، والطبراني في ((الدعاء)) (499)، والدارقطني (1/298).
صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (896)، وقوَّى إسنادَه الذهبيُّ في ((تنقيح التحقيق)) (1/141)، ووثَّق رجالَه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (1/411).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ: ((إنَّما مَثَلي ومَثَلُ النَّاسِ كمَثَلِ رَجُلٍ استوقَدَ نارًا، فلمَّا أضاءتْ ما حوْلَه جعَل الفَراشُ وهذه الدَّوابُّ الَّتي تَقَعُ في النَّارِ يَقَعْنَ فيها، فجعَل يَنزِعُهنَّ ويَغلِبْنَه فيَقتَحِمْنَ[34] فيها، فأنا آخِذٌ بحُجَزِكم[35] عن النَّارِ، وهم يَقتَحِمونَ فيها)).[36]

لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (20).

لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ.

أي: لكِنِ الَّذين اتَّقَوا رَبَّهم في الدُّنيا، بامتِثالِ أمْرِه، واجتِنابِ نَهْيِه: لهم في الجنَّةِ بِناياتٌ عاليةٌ، بَعضُها فَوقَ بَعضٍ.

كما قال تعالى: أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا [الفرقان: 75].

وقال سُبحانَه: إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ [سبأ: 37].

---

(34) فيَقتَحِمْنَ: أي: فيَدخُلْنَ.
يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (9/277).
(35) بحُجَزِكُم: جَمعُ حُجْزةٍ، وهي مَعقِدُ الإزارِ.
يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (9/277).
(36) رواه البخاري (6483) واللفظ له، ومسلم (2284).

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ – ﷺ – قال: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ لَيَتراءَوْنَ أهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهم، كما تَتراءَونَ الكوكَبَ الدُّرِّيَّ[37] الغابِرَ مِن الأُفُقِ،[38] مِن المَشرقِ أو المَغرِبِ؛ لِتَفاضُلِ ما بيْنَهم. قالوا: يا رسولَ اللهِ، تلك مَنازِلُ الأنبياءِ لا يَبلُغُها غَيرُهم. قال: بلى، والَّذي نَفْسي بيَدِه، رِجالٌ آمَنوا باللهِ، وصَدَّقوا المُرسَلينَ)).[39]

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله – ﷺ – قال: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ لَيَتراءَونَ الغُرفةَ في الجنَّةِ كما تَراءَونَ الكوكَبَ في السَّماءِ)).[40]

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

أي: تجري مِن تحتِ تلك الغُرَفِ الأنهارُ المُتدَفِّقةُ.

---

(37) الدُّرِّيَّ: أي: الشَّديدَ الإضاءةِ.
يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (285/5).
(38) الغابرَ: أي: الباقِيَ في الأُفُقِ بعدَ انتِشارِ ضَوءِ الفَجرِ، وإنَّما يَستنيرُ في ذلك الوقتِ الكوكبُ الشَّديدُ الإضاءةِ.
يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (285/5).
(39) رواه البخاري (3256)، ومسلم (2831) واللَّفظ له.
(40) رواه البخاري (6555)، ومسلم (2830) واللَّفظ له.

وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ.

أي: وَعَدَهم اللهُ تلك الغُرَفَ والمَنازِلَ وعْدًا مؤكَّدًا لا يُخلِفُه؛ فاللهُ لا يُخلِفُ ما وَعَد به عِبادَه، بل يُوفِي به سُبحانَه.

سُورةُ الزُّمَرِ

الآيات (21-23)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (21) أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)

غريب الكلمات:

فَسَلَكَهُ: أي: فأجْراه وأدخَلَه، وأصلُ (سلك): يدُلُّ على نُفوذِ شيءٍ في شَيءٍ.

يَنَابِيعَ: أي: عُيونًا تنبُعُ، ومفردُها: يَنبوعٌ، مِن قَولِهم: نَبَع الماءُ: إذا ظَهَرَ وفارَ، وأصلُ (نبع): يدُلُّ على خُروجِ الماءِ مِن العَينِ.

يَهِيجُ: أي: يَيبَسُ ويجِفُّ، يُقالُ: هاج النَّبتُ هِياجًا، أي: يَبِسَ، وأرضٌ هائِجةٌ: يَبِسَ بَقلُها واصفَرَّ، وأصل (هيج): يدُلُّ على ثَوَرانِ شَيءٍ.

حُطَامًا: أي: فُتاتًا مُكَسَّرًا، مِن تحطَّمَ العُودُ: إذا تفَتَّت مِن اليُبْسِ، وأصلُ (حطم): يدُلُّ على كَسرِ الشَّيءِ.

مَثَانِيَ: أي: تُثَنَّى وتُكَرَّرُ فيه الأنباءُ والأخبارُ، والقَضاءُ والأحكامُ والحُجَجُ، وأصلُ (ثني): يدُلُّ على تَكريرِ الشَّيءِ.

تَقْشَعِرُّ: أي: تنقَبِضُ وتَضطَرِبُ مِنَ الخَوفِ.

تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (21).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ.

أي: ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنزلَ المطرَ مِن السَّماءِ، فأدخَلَه في الأرضِ وأجراه فيها.

قال تعالى: وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ [المؤمنون: 18].

ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ.

أي: ثمَّ يُنبِتُ اللهُ بهذا الماءِ زُروعًا مُختَلِفةَ الألوانِ.

كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [الأنعام: 99].

وقال سُبحانَه: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا [فاطر: 27].

ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا.

أي: ثُمَّ ييبسُ الزَّرعُ ويجِفُّ فتَراه مُصفَرَّ اللَّونِ بعدَ تلك البَهجةِ والنَّضْرةِ.

ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا.

أي: ثمَّ يجعَلُ اللهُ الزَّرعَ الذَّابِلَ فُتاتًا مُتكَسِّرًا.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ.

أي: إنَّ في ذلك لَذِكْرى يَتذكَّرُ بها أهلُ العُقولِ الصَّحيحةِ.

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22).

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ.

أي: أفمَنْ وسَّع اللهُ قَلبَه لِمَعرفتِه، وفَسَحَه للإقرارِ بوَحدانيَّتِه، والخُضوعِ لطاعتِه، والعَمَلِ بدِينِه، فهو على بَصيرةٍ ويَقينٍ مِن رَبِّه، وشُعورٍ بالرَّاحةِ والطُّمأنينةِ والسُّرورِ: كمَنْ ليس كذلك ممَّن هو ضَيِّقُ الصَّدرِ عن استِماعِ الحَقِّ واتِّباعِه، قاسي القَلبِ، مُعرِضٌ عن ذِكرِ الرَّبِّ تعالى؟!

كما قال تعالى: أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا [الأنعام: 122].

وقال سُبحانَه: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ [الأنعام: 125].

فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ.

أي: فوَيلٌ للَّذين تَقسو قُلوبُهم إذا سَمِعوا ذِكرَ اللهِ؛ فلا تَلينُ لكِتابِه، ولا تَتذكَّرُ آياتِه، ولا تَطمَئِنُّ عندَ ذِكرِه، ولا تَخشَعُ ولا تَعِي، بل هي مُعرِضةٌ عن ربِّها!

كما قال تعالى: وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ [التوبة: 125].

وقال عزَّ وجلَّ: وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [الزمر: 45].

أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

أي: أولئك القاسيةُ قُلوبُهم مِن ذِكرِ اللهِ: في ضَلالٍ ظاهرٍ عن الحقِّ.

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23).

سبب النزول:

عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أُنزِلَ القُرآنُ على رَسولِ الله - ﷺ -، فتلا عليهم زَمانًا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، لو قصَصْتَ علينا! فأنزل اللهُ: الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ [يوسف: 1] إلى قَولِه: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ [يوسف: 3]، فتلاها عليهم رَسولُ اللهِ - ﷺ - زمانًا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، لو حدَّثْتَنا، فأنزَلَ الله: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا... [الزمر: 23] الآيةَ، كُلُّ ذلك يُؤْمَرون بالقُرآنِ)).[41]

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا.

أي: اللهُ نزَّل القرآنَ الَّذي هو أحسَنُ الحَديثِ، كِتابًا يُشبِهُ بَعضُه بَعضًا في صِدقِ الأخبارِ، وعَدلِ الأحكامِ، وبَلاغةِ الألفاظِ، وشَرَفِ المعاني؛ فلا تَفاوُتَ فيه في لَفظٍ ولا مَعنًى، ويُصَدِّقُ بَعضُه بَعضًا، فلا اختِلافَ فيه ولا تَضادَّ.

كما قال الله تعالى: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا [النساء: 82].

---

(41) أخرجه البزار (1153)، وابن حبان (6209)، والحاكم (3319).
حَسَّنه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (222/6)، وابنُ حجر في ((المطالب العالية)) (126/4)، وصَحَّحه الألباني في ((صحيح الموارد)) (1462)، وحسَّن إسنادَه ابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (40/17)، وقوَّاه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (6209).

وقال سُبحانَه: وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا [النساء: 87].

وقال عزَّ وجلَّ: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ [الجاثية: 6].

وقال جَلَّ ثناؤُه: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [يوسف: 111].

وعن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ – ﷺ – إذا خطَب يقولُ: أمَّا بَعْدُ، فإنَّ خَيْرَ الحَديثِ كِتابُ اللهِ، وخَيرَ الهُدْى هُدَى مُحمَّدٍ، وشَرَّ الأُمورِ مُحْدَثاتُها، وكُلَّ بِدعةٍ ضَلالةٌ)).(42)

مَثَانِيَ.

أي: يُثنَّى ما فيه؛ كالوَعدِ والوَعيدِ، والقصصِ، والأحكامِ.

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ.

أي: تَضطَرِبُ وتَتقبَّضُ جُلودُ الَّذين يَخشَونَ رَبَّهم إذا تَلَوُا القُرآنَ أو سَمِعوه.

(42) رواه مسلم (867).

ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ.

أي: ثمَّ تلينُ جُلودُهم، وتَسكُنُ وتطمَئِنُّ قُلوبُهم إلى كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

كما قال الله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ... [الأنفال: 2].

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ.

أي: ذلك هُدى اللهِ، يَهدي به مَن يَشاءُ مِن عِبادِه.

كما قال الله تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [المائدة: 15، 16].

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ.

أي: ومَن يُضْلِلْه اللهُ عن الحَقِّ فلا أحَدَ يَهديه إليه.

كما قال الله تعالى: مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [الأعراف: 186].

سُورَةُ الزُّمَرِ

الآيات (24–26)

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (24)
كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (25) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (26)

غريب الكلمات:

الْخِزْيَ: أي: الذُّلَّ والهوانَ، بما أنزَل بهم مِن العذابِ والنَّكالِ، وأصلُ الخِزيِ: الإبعادُ.

تفسير الآيات:

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ

(24).

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

أي: أفمَن يتَّقي بوَجهِه العَذابَ السَّيِّئَ يومَ القيامةِ خَيرٌ أمَّنْ ليس كذلك، فهو مِنَ الآمِنينَ المُنعَّمِينَ؟

وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ.

أي: ويُقالُ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم في الدُّنيا بالكُفرِ والمعاصي: ذوقوا جزاءَ ما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن كُفرٍ وعِصيانٍ.

كما قال تعالى: يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [العنكبوت: 55].

وقال سُبحانَه: وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ [السجدة: 20].

وقال عزَّ وجلَّ: يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ [القمر: 48].

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (25).

أي: كذَّب كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلَهم، فأهلَكَهم اللهُ بعَذابٍ جاءَهم مِن جِهةٍ لم يَتوقَّعوا مَجيئَه منها.

كما قال الله تعالى: كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا [الأنعام: 148].

وقال سُبحانَه: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ * أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ [الأعراف: 96 – 100].

وقال عزَّ وجلَّ: قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ [النحل: 26].

فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (26).

فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أي: فعَجَّل اللهُ لِكُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ عَذابَ الذُّلِّ والهَوانِ في الحياةِ الدُّنيا.

وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

أي: ولَعذابُ الآخِرةِ أكبَرُ مِن عَذابِ الدُّنيا، فلو كانوا يَعلَمونَ ذلك لاعتَبَروا واتَّعَظوا، فآمَنوا ولم يُعَرِّضوا أنفُسَهم لِعَذابِ اللهِ تعالى.

سُورةُ الزُّمَرِ

الآيات (27–31)

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي
عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (29) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ
إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31)

غريب الكلمات:

غَيْرَ ذِي عِوَجٍ: أي: لا اعوِجاجَ فيه ولا انحِرافَ، وقيل: العِوَجُ -بالكَسرِ- في المعاني، والعَوَجُ -بالفتحِ- في الأعيانِ، وأصلُ (عوج): يدُلُّ على مَيلٍ.

مُتَشَاكِسُونَ: أي: مُختَلِفونَ مُتنازِعونَ، وأصلُ (شكس): يدُلُّ على سُوءِ خُلُقٍ.

سَلَمًا لِرَجُلٍ: أي: خالصًا له، لا يَشرَكُه فيه غيرُه.

تَخْتَصِمُونَ: أي: تَتنازَعونَ، وتَختلِفونَ، وأصلُ (خصم): مُنازَعةٌ، وأصلُ المُخاصَمةِ: أن يَتعلَّقَ كلُّ واحدٍ بخُصْمِ الآخَرِ، أي: جانبِه.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27).

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ.

أي: ولقد ذكَرْنا وبيَّنَّا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ كُلَّ صِنفٍ ممَّا يحتاجُونَ إليه مِنَ الأمثالِ.

كما قال تعالى: مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ [الأنعام: 38].

وقال سُبحانَه: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا [الإسراء: 89].

وقال عزَّ وجلَّ: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الروم: 28].

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

أي: لَعلَّهم يتذكَّرون الحَقَّ، فيَتَّعِظونَ ويَنزَجِرون عمَّا هم فيه مِن ضَلالٍ.

قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28).

قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ.

أي: قُرآنًا عَرَبيًّا، لا اعوِجاجَ فيه؛ فلا لَبْسَ فيه ولا اختِلافَ، ولا خَلَلَ ولا تناقُضَ.

كما قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [يوسف: 2].

وقال اللهُ سُبحانَه: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا [الكهف: 1].

لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ.

أي: جعَلْناه قرآنًا عربيًّا غيرَ ذي عِوَجٍ؛ لِيَفْهَمَه النَّاسُ ويَعْملوا به؛ فيَتَّقوا سخَطَ اللهِ وعذابَه، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه.

كما قال تعالى: فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [الدخان: 58].

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (29).

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ.

أي: ذكَرَ اللهُ تعالى مَثَلًا للمُشرِكِ الَّذي يَعبُدُ آلِهةً شتَّى، بعَبدٍ مملوكٍ لِشُركاءَ مُتنازِعينَ سَيِّئةٍ أخلاقُهم، وكلٌّ مِنهم يَستَخدِمُه بقَدْرِ مِلْكِه فيه؛ فهو يُعاني منهم لاختِلافِهم، ولا يَقِرُّ له قَرارٌ، ولا يُمكِنُه أن يُرضِيَهم جميعًا؛ وضرَب مَثَلًا للمُوَحِّدِ الَّذي يَعبُدُ اللهَ وَحْدَه، بعَبدٍ خالِصٍ لرَجُلٍ واحِدٍ، لا يَملِكُه غيرُه؛ فعَلِمَ مَقاصِدَ سَيِّدِه، وعَرَف الطَّريقَ إلى رِضاه، وهو في سَلامةٍ وطُمَأنينةٍ وراحةٍ مِن تَشاحُنِ الشُّرَكاءِ فيه، مع رَحمةِ مالِكِه به، وشَفَقَتِه عليه، وإحسانِه إليه.

هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا.

أي: فهل يَستوي في العُقولِ العَبدُ المَملوكُ لِشُرَكاءَ مُتشاكِسينَ، والمملوكُ لسَيِّدٍ واحِدٍ؟ كلَّا، لا يَستويانِ؛ فكذلك لا يَستوي المُشرِكُ الَّذي يَعبُدُ آلِهةً كثيرةً، والمَوَحِّدُ الَّذي لا يَعبُدُ إلَّا اللهَ وَحْدَه.

الْحَمْدُ لِلَّهِ.

أي: الحَمدُ لله وَحْدَه دونَ كُلِّ مَن سِواه، الَّذي أقام بهذا المَثَلِ الواضِحِ الحُجَّةَ على المُشرِكينَ، وأبان الحَقَّ مِن الباطِلِ؛ فلا يَنبغي أن يكونَ له شَريكٌ.

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: بل أكثَرُهم لا يَعلَمونَ الحَقَّ، فهم لا يَعلَمونَ أنَّ المُوحِّدَ والمُشرِكَ لا يَستَويانِ، وأنَّ عِبادةَ رَبٍّ واحدٍ خَيرٌ مِن عِبادةِ أربابٍ شَتَّى؛ فيَعبُدونَ غَيرَ اللهِ ويُشرِكونَ به!

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30).

أي: إنَّك –يا مُحمَّدُ– صائرٌ إلى الموتِ لا مَحالةَ، وإنَّ جَميعَ قَومِك؛ مُؤمِنِهم وكافِرِهم، سيَموتونَ كذلك.

كما قال تعالى: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ [آل عمران: 144].

وقال سُبحانَه: ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ [المؤمنون: 15، 16].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ *كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ [الأنبياء: 34، 35].

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31).

أي: ثمَّ إنَّكم تختَصِمونَ يومَ القيامةِ عِندَ اللهِ رَبِّكم فيما كُنتُم تختَلِفونَ فيه في الدُّنيا، فيَفصِلُ بيْنَكم باِلحقِّ.(43)

كما قال الله تعالى: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [البقرة: 113].

---

(43) اختُلف في معنى هذه الآية على قولين: الأول: عُنِيَ بها اختصام المؤمنين والكافرين، والمظلوم والظالم.

الثاني: عُنِيَ بها اختصام أهل الإسلام.

وعلَّق ابنُ عطية (٧/ ٣٩٢) على القول الأول بقوله: «ومِن هذا قول عليٍّ:» أنا أول من يجثو يوم القيامة للخصومة بين يدي الرحمن «، فيختصم عليٌّ، وحمزة، وعبيدة بن الحارث مع عُتْبَة، وشَيْبَة، والوليد».

ورجَّح ابنُ جرير (٢٠/ ٢٠٢) مستندًا إلى دلالة العموم أن «جميعَكم أيُّها الناس تختصمون عند ربكم، مؤمنُكم وكافرُكم، ومُحِقُّوكم ومُبْطِلوكم، وظالموكم ومظلوموكم، حتى يؤخذ لكلٍّ من كلٍّ منكم ممن لصاحبه قِبَله حقٌّ حقُّه».

وعلَّل ذلك بقوله: «لأن الله عمَّ بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ خطابَ جميعِ عباده، فلم يَخْصُص بذلك منهم بعضًا دون بعض، فذلك على عمومه على ما عمَّه الله به، وقد تنزل الآية في معنًى ثم يكون داخلًا في حكمها كلُّ ما كان في حكم معنى ما نزَلَت به».

وحكى ابنُ عطية (٧/ ٣٩٣) العموم، ثم أدخل تحته قولًا آخر يُروى غير القولين السابقين: «أنه يختصم الروح مع الجسد في أن يُذَنِّب كلُّ واحد منهما صاحبه، ويجعل المعصية في حيزه، فيحكم الله تعالى بشركتهما في ذلك».

ثم رجَّح أنها في الكفار، فقال: «ومعنى الآية عندي: أن الله تعالى توعدهم بأنهم سيخاصمون يوم القيامة في معنى ردِّهم في وجه الشريعة وتكذيبهم لرسول الله إليهم».

ورجَّح ابنُ كثير (١٢/ ١٢٦، ١٢٩) مستندًا إلى دلالة العموم أن «هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة، فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة».

وقال الله سُبحانَه: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [السجدة: 25].

وعن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ، عن الزُّبَيرِ بنِ العوَّامِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نَزَلت هذه السُّورةُ على رَسولِ اللهِ – ﷺ –: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ قال الزُّبَيرُ: أيْ رَسولَ اللهِ، أيُكَرَّرُ علينا ما كان بَيْنَنا في الدُّنيا مع خَواصِّ الذُّنوبِ؟[44] قال: نعَمْ، لَيُكَرَّرَنَّ عليكم حتَّى يُؤدَّى إلى كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه! فقال الزُّبَيرُ: واللهِ إنَّ الأمرَ لَشَديدٌ)).[45]

---

(44) أي: مع السُّؤالِ عن الذُّنوبِ المخصوصةِ بكلِّ أحدٍ مِنَّا.

يُنظر: ((حاشية السندي على مسند الإمام أحمد بن حنبل)) (228/1).

(45) أخرجه الترمذي (3236)، وأحمد (1434) واللفظُ له.

قال الترمذيُّ: (حسَنٌ صحيحٌ).

وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3236)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (21/3)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (1434).

سُورةُ الزُّمَرِ

الآيات (32-35)

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (32) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (35)

غريب الكلمات:

مَثْوًى: أي: منزلٌ ومقامٌ ومَأوًى، والثَّواءُ: الإقامةُ مع الاستِقرارِ.

لِيُكَفِّرَ: أي: لِيَستُرَ، ولا يؤاخِذَ، وأصلُ (كفر): سترٌ وتغطيةٌ.

تفسير الآيات:

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (32).

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ.

أي: لا أحَدَ أظلَمُ ممَّن كذَبَ على اللهِ، فنَسَب إليه باطِلًا –كمَن زعَمَ أنَّ لله شُرَكاءَ في عبادتِه– وكذَّب بالحَقِّ المُشتَمِلِ على الصِّدقِ حينَ بلَغَه.

كما قال تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ [الأنعام: 21].

وقال سُبحانَه: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ [العنكبوت: 68].

وقال تبارك وتعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [الصف: 7].

أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ.

أي: أليس في جَهنَّمَ مَأوًى ومُستَقَرٌّ لأولئك الَّذين كَفَروا؛ بكَذِبِهم على اللهِ، وتَكذيبِهم بالصِّدقِ لَمَّا جاءهم، وكذلك لِكُلِّ كافِرٍ باللهِ تعالى؟

وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33).

أي: والَّذين دَعَوا إلى القُرآنِ وما اشتمَلَ عليه مِنَ الحَقِّ، وصدَّقوا به: هم الَّذين تَتحَقَّقُ فيهم صِفةُ التَّقْوى لله تعالى.(46)

---

(46) اختُلف في معنى: ﴿والَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وصَدَّقَ بِهِ﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: الذي جاء بالصدق: رسول الله، والصدق الذي جاء به: لا إله إلا الله، والذي صدّق به أيضًا: هو رسول الله.

الثاني: الذي جاء بالصدق: رسول الله، والذي صدَّق به: أبو بكر.

الثالث: الذي جاء بالصِّدق: رسول الله، والصِّدق: القرآن، والمصدِّقون به: المؤمنون.

الرابع: الذي جاء بالصِّدق: جبريل، والصِّدق: القرآن الذي جاء به من عند الله، وصدَّق به: رسول الله.

الخامس: الذي جاء بالصِّدق: المؤمنون، والصدق: القرآن، وهم المصدِّقون به.

السادس: الذين جاءوا بالصدق: الأنبياء، والذين صدَّقوا به: الأتباع.

السابع: الذي جاء بالصِّدق: رسول الله، والذي صدَّق به: علي.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٠/ ٢٠٦) مستندًا إلى دلالة السياق، والقراءات، وظاهر اللفظ: «أن يُقال: إنّ الله –تعالى ذِكْره– عنى بقوله: ﴿والَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وصَدَّقَ بِهِ﴾ كلَّ مَن دعا إلى توحيد الله، وتصديق رسوله، والعمل بما ابتُعِث به رسوله من بَيْن رسول الله وأتباعه والمؤمنين به.

وأن يقال: الصدق هو القرآن، وشهادة أن لا إله إلا الله.

والمصدّق به: المؤمنون بالقرآن، مِن جميع خلْق الله كائنًا مَن كان مِن نبيّ الله وأتباعه».

وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ قوله –تعالى ذكره–: ﴿والَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وصَدَّقَ بِهِ﴾ عقيب قوله: ﴿فَمَن أظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلى اللَّهِ وكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إذْ جاءَهُ﴾، وذلك ذمٌّ مِن الله المفترِين عليه، المكذِّبين بتنزيله ووَحْيه، الجاحدين وحدانيته، فالواجب أن يكون عقيب ذلك مدحُ مَن كان بخلاف صفة هؤلاء المذمومين، وهم الذين دعوهم إلى توحيد الله، ووصفه بالصفة التي هو

بها، وتصديقهم بتنزيل الله ووحيه، والذين هم كانوا كذلك يوم نزلت هذه الآيةُ، رسول الله وأصحابه ومن بعدَهم، القائمون في كل عصر وزمان بالدعاء إلى توحيد الله، وحكم كتابه؛ لأن الله -تعالى ذِكْره- لم يَخُصَّ وصفه بهذه الصفة التي في هذه الآية على أشخاصٍ بعينهم، ولا على أهل زمان دون غيرهم، وإنما وصَفَهم بصفةٍ، ثم مدحهم بها، وهي المجيء بالصدق والتصديق به، فكلُّ من كان ذلك وصفه فهو داخلٌ في جملة هذه الآية إذا كان من بني آدم.

ومن الدليل على صحة ما قلنا: أن ذلك كذلك في قراءة ابن مسعود: (والَّذِي جَآءُوا بِالصِّدْقِ وصَدَّقُوا بِهِ) فقد بُيِّنَ ذلك من قراءته، أن» الذي «من قوله: ﴿والَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ﴾ لم يُعْنَ بها واحدٌ بعينه، وأنه مرادٌ بها جِماعٌ ذلك صفتهم، ولكنها أُخرجت بلفظ الواحد، إذ لم تكن موقَّتةً،...

ومما يؤيِّد ما قلنا أيضًا: قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ﴾ فجُعِل الخبر عن» الذي «جماعًا؛ لأنها في معنى جِماعٍ».

وانتقد (٢٠/ ٢٠٧ - ٢٠٨) القول الثاني، والثالث، والرابع -مستندًا إلى مخالفة ظاهر اللفظ- قائلا: «وأما الذين قالوا: عُنِيَ بقوله: ﴿وصَدَّقَ بِهِ﴾ غيرُ» الذي جاء بالصِّدق «فقولٌ بعيدٌ من المفهوم؛ لأن ذلك لو كان كما قالوا لكان التنزيل: والذي جاء بالصِّدق والذي صدَّق به أولئك هم المتقون؛ فكانت تكون» الذي «مكررةً مع التصديق، ليكون المصدَّق غيرَ المصدِّق، فأما إذا لم يُكرَّر فإن المفهوم من الكلام أن التصديق من صفة الذي جاء بالصدق، لا وجه للكلام غيرُ ذلك».

وبنحوه قال ابنُ تيمية (٥/ ٣٩٦).

وذكر ابنُ عطية (٧/ ٣٩٤) أن «قوله تعالى: ﴿والَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ﴾ مُعادِلٌ لقوله: ﴿فَمَن أظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلى اللهِ وكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ فـ» مَن «هناك للجميع والعموم، و» الذي «هنا للجنس أيضًا، كأنه قال: والفريق الذي جاء بعضه بالصدق، وصدَّق به بعضُه».

ثم رجَّحه مستندًا إلى دلالة العموم، وبيَّن أنه أصوب الأقوال، وأنه يستقيم اللفظ والمعنى على هذا الترتيب.

ورجَّح ابنُ تيمية (٥/ ٣٩٦ - ٣٩٧) العمومَ في معرض انتقاده لقول مجاهد من طريق ليث، فبيَّن أن «لفظ الآية عام مطلق لا يختص بأبي بكر ولا بعليّ، بل كل من دخل في عمومها دخل في حكمها.

ولا ريب أن أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا أحق هذه الأمة بالدخول فيها، لكنها لا تختص بهم.

وقد قال تعالى: ﴿فَمَن أظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلى اللَّهِ وكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إذْ جاءَهُ ألَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكافِرِينَ والَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ﴾ الآية، فقد ذمّ الله؟ الكاذب على الله والمكذّب بالصدق، وهذا ذمٌّ عامٌّ...

والله تعالى مدح الصادق فيما يجيء به والمصدّق بهذا الحق.

فهذا مدح للنبي، ولكل من آمن به وبما جاء به...

ولما كان قوله: ﴿والذي﴾ صنفًا من الأصناف لا يُقصد به واحد بعينه، أعاد الضمير بصيغة الجمع فقال: ﴿والَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ﴾».

وعلَّق ابنُ كثير (١٢/ ١٣٠) على القول الخامس -وهو قول مجاهد من طريق منصور- بقوله: «وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين، فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به، والرسول أوْلى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير، فإنه جاء بالصدق، وصدَّق المرسلين، وآمن بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله».

لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (34).

لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

أي: لأولئك المتَّقِينَ عندَ رَبِّهم يومَ القيامةِ ما تَشتَهيه أنفُسُهم في الجنَّةِ.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ [الشورى: 22].

وقال سُبحانَه: لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ [ق: 35].

ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ.

أي: ذلك النَّعيمُ ثَوابُ الَّذين أحسَنوا في الدُّنيا.

لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (35).

لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا.

أي: لِيُكفِّرَ اللهُ عن المُحسِنينَ أسْوَأَ الَّذي عَمِلوه مِنَ السَّيِّئاتِ.(47)

وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ.

أي: ويَجزيَهم اللهُ ثَوابَهم بأحسَنِ الَّذي كانوا يَعملونه مِنَ الطَّاعاتِ.

قال تعالى: وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: 96، 97].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله – ﷺ –: ((إذا أحسَنَ أحَدُكم إسلامَه، فكُلُّ حَسَنةٍ يَعمَلُها تُكتَبُ له بعَشرِ أمثالِها إلى سَبْعِ مِئةِ ضِعفٍ، وكُلُّ سَيِّئةٍ يَعمَلُها تُكتَبُ له بمِثلِها)).(48)

---

(47) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٣٩٦) لتعلق اللام في قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ احتمالين: الأول: «أن تتعلق بقوله تعالى: ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: الذين أحسنوا لكي يكفِّر.

قاله ابن زيد»، والثاني: «أن تتعلق بفعل مضمر مقطوع مما قبله، كأنك قلت: بشَّرهم الله تعالى بذلك ليُكَفِّر.

لأن التكفير لا يكون إلا بعد التيسير للخير، و﴿أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ هو كُفْر أهل الجاهلية ومعاصي أهل الإسلام».

(48) رواه البخاري (42) واللَّفظُ له، ومسلم (129).

سُورةُ الزُّمَرِ

الآيات (36–41)

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36)
وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (37) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ
هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ
الْمُتَوَكِّلُونَ (38) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَنْ
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (40) إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ
فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41)

غريب الكلمات:

حَسْبِيَ اللَّهُ: أي: اللهُ كافِيَّ، يُقالُ: أعطاني فأحْسَبَني، أيْ: كَفاني، وأصلُ (حسب) هنا: الكِفايةُ.

مَكَانَتِكُمْ: أي: طَريقتِكم الَّتي أنتم عليها، تقولُ للرَّجُلِ إذا أمَرْتَه أن يَثبُتَ على حالِه: على مكانَتِك يا فُلانُ، أي: اثبُتْ على ما أنت عليه.

يُخْزِيهِ: أي: يُذِلُّه ويُهينُه، وأصلُه هنا: الإبعادُ.

وَيَحِلُّ عَلَيْهِ: أي: يَنزِلُ به، ويجِبُ عليه، وأصلُ (حلل): فَتْحُ الشَّيءِ، ومنه: حلَّ أي: نزَل؛ لأنَّ المسافِرَ يَشُدُّ ويَعقِدُ، فإذا نزلَ حَلَّ.

بِوَكِيلٍ: أي: حافِظٍ وكَفيلٍ، وأصلُ (وكل): يدُلُّ على اعتِمادِ غَيرِك في أمْرِك.

تفسير الآيات:

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36).

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ.

أي: أليس اللهُ كافيًا مَن قام بعُبوديَّتِه[49] كلَّ سُوءٍ، وعاصِمًا له مِن كُلِّ كَيدٍ؟

كما قال تعالى: فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ [البقرة: 137].

وقال الله سُبحانَه: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [الأنفال: 64].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا [الحج: 38].

وقال تعالى: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ [الطلاق: 3].

---

(49) قيل: المرادُ بـ عَبْدَهُ: محمَّدٌ - ﷺ -.
وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والزمخشري، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (209/20)، ((تفسير الزمخشري)) (129/4)، ((تفسير القرطبي)) (257/15)، ((تفسير السعدي)) (ص: 725)، ((تفسير ابن عاشور)) (13/24).
وقيل: المرادُ العُمومُ في كُلِّ مَن قام بعُبوديَّةِ اللهِ تعالى وأداءِ حُقوقِه، فكُلُّ مَن كان عبدًا لله تعالى حقًّا فإنَّ اللهَ تعالى كافيه.
وممَّن ذهب إلى هذا العُمومِ: ابنُ القيِّم، وابنُ كثير، وابن رجب، وابن عثيمين.
يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: 5)، ((تفسير ابن كثير)) (100/7)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (110/3)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: 253).

القراءات ذات الأثر في التفسير:

1- قِراءةُ: عِبَادَهُ جَمْعُ عَبدٍ، فيَدخُلُ فيهم كُلُّ مَن عبَدَ اللهَ مِن الأنبياءِ والمُؤمنينَ. وقيل: المرادُ: عِبادُه الأنبياءُ.(50)

2- قِراءةُ: عَبْدَهُ بالإفرادِ. قيل: المرادُ به: محمَّدٌ - ﷺ -. وقيل: يحتمِلُ أنَّه لَفظُ جِنسٍ يَشملُ جميعَ عبادِ اللهِ، فتَكونُ بمعنى القِراءةِ الأُولى.(51)

وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ.

أي: ويُخَوِّفُك مُشرِكو قَومِك -يا مُحمَّدُ- بمَنْ دونَ اللهِ أنَّهم يَنالونَك بسُوءٍ!

كما قال تعالى حكايةً عن قَولِ عادٍ لِنَبيِّهم هودٍ عليه السَّلامُ: إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ [هود: 54].

---

(50) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو جعفرٍ، وخَلَفٌ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/362).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (20/209)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/338)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (6/96).

(51) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/362، 363).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (20/209)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/338)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (6/96)، ((تفسير القرطبي)) (15/ 257)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: 5).

وقال سُبحانَه: إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [آل عمران: 175].

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ.

أي: ومَن يُضِلَّه اللهُ عن طريقِ الحقِّ فلا أحدَ يَهديه إليه.

كما قال الله تعالى: مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [الأعراف: 186].

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (37).

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ.

أي: ومَن يَهْدِه اللهُ إلى الحقِّ فلا أحَدَ يُضِلُّه عنه.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ.

أي: أليس اللهُ عَزيزًا في انتِقامِه مِن الكُفَّارِ، مَنيعَ الجَنابِ، قاهِرًا للعبادِ، وبعِزَّتِه يَكفي عَبْدَه ويَدفَعُ عنه مَكْرَ أعدائِه؛ ذا انتِقامٍ مِن الجاحِدينَ وحدانيَّتَه، المكَذِّبينَ رُسُلَه، العاصِينَ أمْرَه؟

كما قال تعالى: وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ [آل عمران: 4].

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38).

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ.

أي: ولَئِنْ سألْتَ المُشرِكِينَ -يا مُحمَّدُ-: مَنِ الَّذي خَلَقَ السَّموَاتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه هو خالِقُهما.

قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكِينَ الَّذين أقَرُّوا بأنَّ اللهَ وَحْدَه خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ: أرأَيْتُم الآلِهَةَ الَّتي تَدْعونَها مِن دُونِ اللهِ: هل تَقدِرُ على كَشْفِ ما يُصيبُني مِن ضُرٍّ إن أراد اللهُ أن يُصيبَني به؟

أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ.

أي: أو هل تَقدِرُ آلهتُكم أن تَمنَعَ عنِّي رَحمةَ رَبِّي إن أراد اللهُ أن يُصيبَني بها؟

كما قال الله تعالى: وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [يونس: 107].

وقال سُبحانَه: مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [فاطر: 2].

قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ.

أي: قُلْ –يا مُحمَّدُ–: يَكفيني اللهُ وَحْدَه مِن كُلِّ شَيءٍ، فأنا أفَوِّضُ إليه جميعَ أُموري، وأعتَمِدُ عليه وَحْدَه دونَ غَيرِه؛ على اللهِ وَحْدَه يَعتَمِدُ المتوكِّلونَ في جَلْبِ مَصالِحِهم، ودَفْعِ مَضارِّهم.

كما قال تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ [التوبة: 129].

قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39).

قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ.

أي: قُلْ –يا مُحمَّدُ– لِمُشرِكي قَومِك: يا قَومِ، اعمَلوا على طَريقتِكم ومَنهَجِكم وحالَتِكم الَّتي رَضِيتُموها لأنفُسِكم، وجَمَدْتُم عليها، أمَّا أنا فعامِلٌ بمَنهجي الَّذي أمَرَني اللهُ به.

كما قال تعالى: وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ [هود: 121، 122].

... فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (40).

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ.

أي: فسوفَ تَعلَمونَ مَن يأتيه في الدُّنيا عذابٌ مِنَ اللهِ يُذِلُّه ويُهينُه.

وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ.

أي: ومَن يَنزِلُ عليه في وَقتِه المحدَّدِ له عَذابٌ مُستَمِرٌّ لا يُفارِقُه.

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41).

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ.

أي: إنَّا أنزَلْنا عليك -يا مُحمَّدُ- القُرآنَ للنَّاسِ بالحَقِّ، فتُنذِرُهم به، وتُبَيِّنُ لهم الهُدى.

كما قال تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [المائدة: 15، 16].

وقال الله سُبحانَه: وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا [الإسراء: 105].

وقال عزَّ وجلَّ: وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ [الأنعام: 19].

فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ.

أي: فمَن عَمِلَ بالقُرآنِ واتَّبَعَه، فإنَّما يعودُ نَفْعُ ذلك على نَفْسِه.

وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا.

أي: ومَن ضَلَّ عن الحَقِّ، فلم يُؤمِنْ بالقُرآنِ ويَتَّبِعْه؛ فإنَّما يعودُ وَبالُ ذلك وضَرَرُه على نَفْسِه، لا على غَيرِه.

كما قال تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ [الأنعام: 104].

وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ.

أي: وما أنتَ –يا مُحَمَّدُ– بمُوكَّلٍ باهتِداءِ النَّاسِ؛ فتَقهَرَهم على اتِّباعِ الحَقِّ، ولا بمُراقِبٍ لأعمالِهم، ولا حَفيظٍ عليها، ولا مُحاسِبٍ لهم، وإنَّما عليك البَلاغُ.

كما قال تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ [يونس: 108].

سُورةُ الزُّمَرِ

الآيات (42-45)

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ
وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ
دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (43) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (44) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45)

غريب الكلمات:

شُفَعَاءَ: جَمْعُ شَفيعٍ، والشَّفاعةُ: الانْضِمامُ إلى آخَرَ نُصْرةً له، وسؤالًا عنه، وشَفَعَ لِفُلانٍ: إذا جاءَ مُلْتَمِسًا مَطْلَبَه، ومُعِينًا له؛ والشَّفْعُ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه، وأصلُ (شفع): يدلُّ على مقارنةِ الشيئينِ.

اشْمَأَزَّتْ: أي: انقَبَضَت ونفَرَت، يُقالُ: اشمأَزَّ الرَّجُلُ اشمِئزازًا: انقَبَض، واجتَمَع بَعضُه إلى بَعضٍ.

يَسْتَبْشِرُونَ: أي: يَفرَحونَ، وأصلُ (بشر): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ مع حُسنٍ وجَمالٍ.

تفسير الآيات:

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42).

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا.

أي: اللهُ يَتوفَّى الأرواحَ(52) حينَ انقِضاءِ أجَلِ أصحابِها.

(52) عن عبد الله بن عباس، في قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ﴾ الآية، قال: نفْسٌ وروح بينهما مثل شعاع الشمس، فيتوفى الله النفسَ في منامه، ويدع الروحَ في جوفه يتقلّب ويعيش، فإن بدا لله أن يقبضه قبض الروح فمات، وإن أخَّر أجلَه ردّ النَّفْس إلى مكانها من جوفه.

عزاه السيوطي إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم.

أفاد أثرُ ابنِ عباس التفرقة بين النفس والروح، وقد انتقده ابنُ عطية (٧/ ٣٩٨) قائلًا: «وكثَّرت فرقة في هذه الآية وهذا المعنى، ففرَّقت بين النَّفْس والروح، وفرَّق قومٌ أيضًا بين نفس التمييز ونفس التَّخَيُّل، إلى غير ذلك من الأقوال التي هي غلبة ظن... فظاهرٌ أن التفصيل والخوض في هذا كله عناء، وإن كان قد تعرَّض للقول في هذا ونحوه الأئمة، ذكر الثعلبي وغيره، عن ابن عباس أنه قال:...» وذكر معنى قول ابن عباس.

ثم رجَّح –مستندًا إلى القرآن، والسنة– عدم التفريق بينهما قائلًا: «وحقيقة الأمر في هذا هي مما استأثر الله –تبارك وتعالى– به، وغيَّبه عن عباده في قوله سبحانه: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِن أمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، ويكفيك أن في هذه الآية: ﴿يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ﴾، وفي الحديث الصحيح: أن الله قَبَضَ أرواحنا حين شاء، وردَّها علينا حين شاء.

في حديث بلال في الوادي، فقد نطقت الشريعة بقبض الرُّوح والنفس في النوم، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِن أمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]».

وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا.

أي: ويَتوفَّى اللهُ في المنامِ الأرواحَ الَّتي لم يَنقَضِ بَعْدُ أجَلُ أصحابِها.(53)

(53) اختُلف في معنى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا والَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها﴾ الآيةَ على قولين: الأول: أن المُمسَكَة: مَن تُوُفِّيَت وفاة الموت، والمُرسَلَة: من توفيت وفاة النوم.

وهو قول ابن عباس من طريق سعيد بن جبير وما في معناه، وقول سعيد بن جبير، والسُّدّي، وابن زيد.

الثاني: أن المُمسكَة والمُرسَلَة في الآية كلاهما توفّي وفاة النوم، وأما التي تُوفيت وفاة الموت فتلك قسم ثالث.

ووجَّه ابنُ القيم (٢/ ٣٩٠) القول الأول بقوله: «والمعنى على هذا القول: أنه يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفّاها الوفاة الأخرى».

وعلّق ابن تيمية (٥/ ٤٠١) على القول الثاني بقوله: «وعلى هذا يدل الكتاب والسنة؛ فإن الله قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفِّي الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا والَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْها المَوْتَ ويُرْسِلُ الأُخرى إلى أجَلٍ مُسَمًّى﴾، فذكر إمساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفّاها بالنوم، وأما التي توفّاها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا إرسال».

ثم رجَّح مستندًا إلى ظاهر لفظ الآية أنّ الآية تتناول النوعين، فقال: «والتحقيق أن الآية تتناول النوعين؛ فإن الله ذكر توفيتين: توفّي الموت، وتوفّي النوم، وذكر إمساك المُتوفاة وإرسال الأخرى.

ومعلوم أنه يُمسك كل ميتة، سواء ماتت في النوم أو قبل ذلك، ويُرسل من لم تمت.

وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفِّي الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ يتناول ما ماتت في اليقظة وما ماتت في النوم، فلما ذكر التوفيتين ذكر أنه يُمسكها في أحد التوفيتين ويُرسلها في الأخرى، وهذا ظاهر اللفظ ومدلوله بلا تكلّف».

وبيَّن ابنُ القيم (٢/ ٣٩٠ - ٣٩١) أن الذي يترجَّح من القولين هو القول الأول مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «والذي يترجّح هو القول الأول؛ لأنه سبحانه أخبر بوفاتين، وفاة كبرى وهي وفاة الموت، ووفاة صغرى وهي وفاة النوم، وقسَم الأرواح قسمين: قسمًا قضى عليها بالموت فأمسكها عنده وهي التي توفّاها وفاة الموت، وقسمًا لها بقية أجل فردّها إلى جسدها إلى استكمال أجلها، وجعل سبحانه الإمساك والإرسال حكمين للوفاتين المذكورتين أولًا، فهذه مُمسَكَة وهذه مُرسَلَة، وأخبر أن التي لم تمت هي التي توفّاها في منامها، فلو كان قد قسَم وفاة النوم إلى قسمين: وفاة موت ووفاة نوم، لم يقل: ﴿والَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها﴾ فإنها من حين قُبضت ماتت، وهو سبحانه قد أخبر أنها لم تمت فكيف يقول بعد ذلك: ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْها المَوْتَ﴾.

ولمن نصر هذا القول أن يقول قوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْها المَوْتَ﴾ بعد أن توفاها وفاة النوم، فهو سبحانه توفاها أولًا وفاة نوم، ثم قضى عليها الموت بعد ذلك».

كما قوّى بعد ذلك تناول الآية للنوعين كما اختار ابنُ تيمية.

كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ [الأنعام: 60].

فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ.

أي: فيَحبِسُ اللهُ الأرواحَ الَّتي حَكَم على أصحابِها بالموتِ، فلا يَرُدُّ أرواحَهم إلى أجسادِهم في الدُّنيا.

وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى.

أي: ويُرسِلُ اللهُ أرواحَ الأحياءِ حينَ استيقاظِهم مِن مَنامِهم، فتَعودُ إلى أجسادِهم، فلا يَتوفَّاها اللهُ الوَفاةَ الكُبرى إلَّا حينَ انقِضاءِ أجَلِهم في الحياةِ الدُّنيا.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ - ﷺ -: ((إذا أوى أحَدُكم إلى فِراشِه فلْيَأخُذْ داخِلةَ إزارِه،[54] فلْيَنفُضْ بها فِراشَه، ولْيُسَمِّ اللهَ؛ فإنَّه لا يَعلَمُ ما خَلَفَه بَعْدَه على فِراشِه،[55] فإذا أراد أن يَضْطَجِعَ فلْيَضْطَجِعْ على شِقِّهِ الأيمَنِ، ولْيَقُلْ: سُبحانَك اللَّهُمَّ رَبِّي، بك وضَعْتُ جنبي، وبك أرفَعُه، إنْ أمسَكْتَ نَفْسي فاغفِرْ لها، وإنْ أرسَلْتَها فاحفَظْها بما تحفَظُ به عِبادَك الصَّالِحينَ)).[56]

---

(54) داخِلةَ إزارِه: أي: طَرَفَ الإزارِ المُتَدَلِّي الدَّاخِلَ إلى البَدَنِ، الَّذي يَلِي الجَسَدَ.
يُنظر: ((غريب الحديث)) لأبي عبيد (70/4)، ((تفسير الموطأ)) للقَنازِعي (761/2)، ((شرح النووي على مسلم)) (37/17).
(55) أيْ: ما صارَ بعْدَه خَلَفًا وبَدَلًا عنه إذا غاب.
وقيل: معناه: لا يَدْري ما وَقَع في فِراشِه بعدَما خَرَج مِنه مِنْ تُرابٍ أو قَذاةٍ أو هَوامَّ.
يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (1873/6)، ((فتح الباري)) لابن حجر (127/11).
(56) رواه البخاري (6320)، ومسلم (2714) واللفظ له.

وعن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان النَّبيُّ – ﷺ – إذا أوَى إلى فِراشِه قال: باسْمِك أموتُ وأحْيا، وإذا قام قال: الحَمدُ لله الَّذي أحيانَا بعدَ ما أماتَنا، وإليه النُّشورُ)).[57]

وعن أبي قَتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سِرْنا معَ النَّبيِّ – ﷺ – لَيْلَةً، فقال: بعضُ القومِ: لو عَرَّسْتَ[58] بنا يا رسولَ اللهِ، قال: أخافُ أنْ تَناموا عن الصَّلاةِ، قال بلالٌ: أنا أُوقِظُكم، فاضْطَجَعوا، وأسْنَد بلالٌ ظهرَه إلى راحِلَتِه، فغَلَبَتْه عَيْناهُ فنام، فاسْتَيْقَظ النَّبِيُّ – ﷺ –، وقد طَلَع حَاجِبُ الشَّمْسِ، فقال: يا بلالُ، أينَ ما قُلْتَ؟ قال: ما أُلْقِيَتْ عَلَيَّ نَوْمَةٌ مِثْلُها قَطُّ، قال: إنَّ اللهَ قَبَض أرواحَكم حِينَ شاءَ، وردَّها عليكم حِينَ شاءَ، يا بلالُ، قُمْ فأَذِّنْ بالنَّاسِ بالصَّلاةِ، فتوَضَّأَ، فلَمَّا ارْتَفَعت الشَّمسُ وابياضَّتْ، قام فصَلَّى)).[59]

وفي روايةٍ عن أبي قَتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ – ﷺ –: ((إنَّ اللهَ قَبَض أرواحَكم حينَ شاء، ورَدَّها حينَ شاء، فقَضَوا حوائِجَهم، وتَوَضَّؤُوا إلى أن طَلَعَت الشَّمسُ وابيَضَّتْ، فقام فصَلَّى)).[60]

---

(57) رواه البخاري (6312).

(58) التعريسُ: نزولُ المسافرِ لغيرِ إقامةٍ، وأصلُه نزولُ آخرِ الليلِ للنَّوم والراحةِ، ويُستعمَلُ في كلِّ وقتٍ.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (155/1) و(67/2).

(59) رواه البخاري (595).

(60) رواه البخاري (7471).

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

أي: إنَّ في هذا التَّوَفِّي للأرواحِ وإمساكِها وإرسالِها: لَعَلاماتٍ ودَلائِلَ، وعِبَرًا وعِظاتٍ للَّذين يَتفكَّرون في شأنِها، فيَستَدِلُّونَ بها على كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، واستِحقاقِه العِبادةَ وَحْدَه دونَ غَيرِه، وعلى تَحقُّقِ وُقوعِ البَعثِ... وغَيرِ ذلك.

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (43).

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ.

أي: أمِ اتَّخَذ المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ آلِهةً يَعبُدونَها؛ لِتَشفَعَ لهم عندَ اللهِ في قَضاءِ حاجاتِهم؟

قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: أيَتَّخِذونَ تلك الأصنامَ شُفَعاءَ لهم، ولو كانت لا تَملِكُ شَيئًا، ولا تَعقِلُ؟!

كما قال تعالى: ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ [فاطر: 13، 14].

قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (44).

قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا.

أي: قُلْ لهم –يا مُحمَّدُ–: لله وَحْدَه الشَّفاعةُ، ومَرجِعُها كُلِّها إليه؛ فلا يَملِكُ أحَدٌ سِواه شَيئًا منها، وهو وَحْدَه مَن يأذَنُ بها إنْ شاء، لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه.

كما قال تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ [البقرة: 255].

وقال سُبحانَه: وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى [الأنبياء: 28].

وقال عزَّ وجَلَّ: وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى [النجم: 26].

لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: لله وَحْدَه مُلكُ السَّمَواتِ ومُلكُ الأرضِ، وله وَحْدَه التَّصَرُّفُ فيهما كما يُريدُ؛ فاعبُدوا اللهَ المالِكَ كُلَّ شَيءٍ، الَّذي يَقدِرُ على نَفْعِكم وضَرِّكم، ولا تَعبُدوا غَيْرَه مِمَّا لا يَملِكُ شَيئًا.

ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

أي: ثُمَّ إلى اللهِ مَصيرُكم يومَ القيامةِ لا إلى غَيرِه، فيَحكُمُ بيْنَكم، ويُجازي كُلًّا منكم.

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45).

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ.

أي: وإذا أُفرِدَ اللهُ تعالى وَحْدَه بالذِّكرِ دُونَ غيرِه مِنَ المعبوداتِ الباطِلةِ انقَبَضَت قُلوبُ المُشرِكينَ الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ، وتمعَّرَت وُجوهُهم ونَفَروا؛ كراهيةً لِتَوحيدِ اللهِ سُبحانَه.

كما قال الله تعالى: وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا [الإسراء: 46].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا [الحج: 71، 72].

وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ.

أي: وإذا ذُكِرَت آلِهتُهم بالخَيرِ اشتَدَّ فَرَحُهم، وظَهَر السُّرورُ على وُجوهِهم.

سُورةُ الزُّمَرِ

الآيات (46–48)

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (48)

غريب الكلمات:

فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: أي: خالِقَهما ومُبدِعَهما ومُبتَدِئَهما، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه.

لَافْتَدَوْا بِهِ: أي: لَبَذَلوا ذلك افتِداءً مِن النَّارِ، والفِدَى والفِداءُ: حِفظُ الإنسانِ عن النَّائبةِ بما يَبذُلُه عنه، وافْتَدى: إذا بذَلَ ذلك عن نفْسِه، والافتِداءُ: جَعْلُ أحدِ الشَّيئينِ بدَلًا مِن الآخَرِ، وأصلُ (فدي) هنا: أنْ يُجْعَلَ شَيءٌ مكانَ شَيءٍ حِمًى له.

يَحْتَسِبُونَ: أي: يَظُنُّونَ، مِن حَسِبْتُ، أي: ظَنَنْتُ، والحِسْبانُ: الظَّنُّ، وأصلُ (حسب) هنا: العَدُّ؛ لأنَّه إذا قال: حَسِبْتُه كذا، فكأنَّه قال: هو في الَّذي أعُدُّه مِنَ الأمورِ الكائنةِ.

وَحَاقَ: أي: أحاطَ ونزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ.

تفسير الآيات:

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46).

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- داعيًا ربَّك وَحْدَه: يا اللهُ يا خالِقَ السَّمواتِ والأرضِ على غَيرِ مثالٍ سابِقٍ.

عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.

أي: يا عالِمَ ما غاب عن الخَلقِ، وما ظهَرَ لهم، فلا يخفَى عليك شَيءٌ مِن ذلك.

كما قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ [آل عمران: 5].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((يا رَسولَ اللهِ، مُرْني بكَلِماتٍ أقولُهنَّ إذا أصبحْتُ وإذا أمسَيتُ. قال: قُل: اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ، رَبَّ كُلِّ شَيءٍ ومَليكَه، أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا أنت، أعوذُ بك مِن شَرِّ نَفْسي، وشَرِّ الشَّيطانِ وشِرْكِه. قال: قُلْها إذا أصبَحْتَ، وإذا أمسَيْتَ، وإذا أخذْتَ مَضْجَعَك)).(61)

(61) أخرجه أبو داودَ (5067) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (3392)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (7699)، وأحمد (7961).
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ).

أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

أي: أنتَ وَحْدَك تَقضي بيْنَ عِبادِك يومَ القيامةِ بالعَدلِ فيما كانوا يَختلِفونَ فيه في الدُّنيا.

كما قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [الحج: 17].

عن أبي سَلَمةَ بنِ عَبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوفٍ، قال: ((سألتُ عائِشةَ أمَّ المؤمنينَ: بأيِّ شَيءٍ كان نبيُّ اللهِ – ﷺ – يفتَتِحُ صَلاتَه إذا قام مِنَ اللَّيلِ؟ قالت: كان إذا قام مِنَ اللَّيلِ افتتَحَ صَلاتَه: اللَّهُمَّ ربَّ جِبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطِرَ السَّمَواتِ والأرضِ، عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ، أنت تَحكُمُ بيْنَ عِبادِك فيما كانوا فيه يَختَلِفونَ، اهدِني لِما اختُلِفَ فيه مِنَ الحَقِّ بإذْنِك؛ إنَّك تَهدي مَن تَشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ)).[62]

وصحَّحه ابنُ حبَّانَ في ((صحيحه)) (692)، وابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (ص: 128)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (363/2)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (5067)، وشعيبُ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (5067).

(62) رواه مسلم (770).

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47).

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

أي: ولو أنَّ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ جَميعَ ما في الأرضِ وضِعْفَ ذلك معه، لَقَدَّموه فِداءً يَفدُونَ به أنفُسَهم للنَّجاةِ مِن العَذابِ السَّيِّئِ يومَ القيامةِ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [آل عمران: 91].

وقال سُبحانه: وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ [الرعد: 18].

وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ.

أي: وظَهَر للظَّالِمينَ يومَ القيامةِ مِن أمرِ اللهِ وعَذابِه الَّذي أعدَّه لهم: ما لم يكُنْ يَخطُرُ ببالِهم، ولم يَقَعْ لهم في ظُنونِهم، وقد كانوا يَحكُمونَ لأنفُسِهم بغيرِ ذلك.

كما قال تعالى: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ [ق: 22].

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (48).

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا.

أي: وظهَرَ للمُشرِكينَ يومَ القيامةِ السَّيِّئاتُ الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي.

كما قال تعالى: وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا [الكهف: 49].

وقال عزَّ وجلَّ: عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ [الانفطار: 5].

وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ.

أي: وأحاط بالكافِرينَ ولَزِمَهم عذابُ اللهِ الَّذي كانوا يَسخَرونَ منه في الدُّنيا.

سُورةُ الزُّمَرِ

الآيات (49–52)

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (49) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (51) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)

غريب الكلمات:

خَوَّلْنَاهُ: أي: مَلَّكْناه وأعطَيْناه، وأصلُه: يدُلُّ على تَعهُّدِ الشَّيءِ.

فِتْنَةٌ: أي: اختبارٌ، وابتلاءٌ، وامتحانٌ، وأصلُ الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رداءتِه.

يَبْسُطُ: أي: يُوَسِّعُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ الشَّيءِ.

وَيَقْدِرُ: أي: يُضَيِّقُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه، كأنَّما جُعِلَ رِزقُه بقَدْرٍ يَسيرٍ.

تفسير الآيات:

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (49).

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا.

أي: فإذا أصاب الإنسانَ ضَرَرٌ وشِدَّةٌ وكَربٌ دعانا؛ لِنَكشِفَ عنه ذلك.

كما قال تعالى: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ [فصلت: 51].

ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ.

أي: ثمَّ إذا أعطَيْناه نِعمةً مِن غِنًى أو عافيةٍ أو غيرِ ذلك، قال: إنَّما أُعطِيتُ ذلك على عِلمٍ![63]

---

(63) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٠٢) في معنى: ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ احتمالين: الأول: «أن يريد: على علم مني بوَجْه المكاسب والتجارات وغير ذلك.

قاله قتادة».

ثم وجَّهه بقوله: «ففي هذا التأويل إعجابٌ بالنفس، وتَعاطٍ مُفرط، ونحو هذا».

والثاني: «أن يريد: على علمٍ من الله تعالى فِيَّ، وشيءٌ سبق لي، واستحقاق حُزْتُه عند الله تعالى، لا يضُرُّني معه شيء».

ثم وجَّهه بقوله: «وفي هذا التأويل اغترارٌ بالله -تبارك وتعالى-، وعَجْزٌ، وتَمَنٍّ على الله تعالى».

ونقل ابنُ القيم (٢/ ٣٩٤) قولين آخرين: الأول: «على علم من الله أني له أهل».

ثم وجَّهه بقوله: «ومضمون هذا القول: أن الله آتانيه على علمه بأني أهله».

الثاني: أن المعنى: «قد علمتُ أني لما أوتيتُ هذا في الدنيا فلي عند الله منزلة وشرف».

كما قال تعالى: وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي [فصلت: 50].

بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ؛ أنَّه أُوتِيَ تلك النِّعمةَ على عِلمٍ، إنَّما هذه النِّعمةُ الَّتي أنعَمْنا بها عليه بلاءٌ واختبارٌ!

كما قال تعالى: أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ [التغابن: 15].

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لجَهلِهم لا يَعلَمونَ أنَّ اللهَ يُعطي النِّعَمَ لعِبادِه؛ فِتنةً لهم.

قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50).

قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

أي: قد قال هذه المقالةَ -إنَّما أُوتِيتُه على عِلمٍ- وادَّعى هذه الدَّعوَى: مَنْ سلَف مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ.

كما قال تعالى حاكيًا عن قارونَ: قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ [القصص: 78].

ثم علَّق عليه بقوله: «وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف».

وقال سُبحانَه: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ [سبأ: 34، 35].

فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

أي: فما دفَع عنهم ما كسَبوه شيئًا مِن العَذابِ لَمَّا جاءَهم.

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (51).

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا.

أي: فأصابَهم جزاءُ سَيِّئاتِ أعمالِهم، وحلَّ عليهم وَبالُ ما كسَبوه.

كما قال تعالى عن قارونَ: فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ [القصص: 81].

وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا.

أي: والَّذين ظلَموا مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ سيُصيبُهم أيضًا وَبالُ ما كسَبوه.

وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ.

أي: ولن يُعجِزوا اللهَ فيَغلِبوه أو يَفُوتوه ويَسبِقوه بالهَرَبِ في الأرضِ؛ فلا يَقدِرَ على عِقابِهم!

أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52).

أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ.

أي: أوَلَم يَعلَمْ أولئك الَّذين يَزعُمونَ أنَّهم أُوتُوا النِّعَمَ على عِلمٍ: أنَّ اللهَ يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم؟

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

أي: إنَّ في توسيعِ اللهِ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، وتَضييقِه على مَن يَشاءُ: لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ للمُؤمِنينَ، فيَستَدِلُّونَ بها على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعلى حِكمتِه ورَحمتِه، وتفَرُّدِه بالتَّصَرُّفِ في أرزاقِ عِبادِه، وغيرِ ذلك.

سُورَةُ الزُّمَرِ

الآيات (53–59)

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (59)

غريب الكلمات:

أَسْرَفُوا: أي: تجاوَزُوا الحدَّ في العِصيانِ، وأصلُه: يدُلُّ على تَعدِّي الحَدِّ.

تَقْنَطُوا: أي: تيْأَسوا، والقُنوطُ: اليأسُ مِنَ الخَيرِ، وأصلُ (قنط): يدُلُّ على اليأْسِ مِن الشَّيءِ.

وَأَنِيبُوا: أي: ارجِعوا وأقْبِلوا، والإنابةُ: الرُّجوعُ إلى اللهِ بالإخلاصِ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادِ مكانٍ، ورُجوعٍ إليه.

بَغْتَةً: أي: فَجأةً، وأصلُ (بغت): يدُلُّ على مُفاجأةِ الشَّيءِ.

يَا حَسْرَتَا: الحسرةُ: النَّدمُ، والاغتِمامُ على ما فاتَ ولا يُمكِنُ ارتجاعُه، والتَّلهُّفُ عليه، وقيل: الحسرةُ شِدَّةُ النَّدامةِ، حتَّى يبقَى النَّادمُ كالحَسيرِ مِن الدَّوابِّ، وهو الَّذي لا مَنفعةَ فيه، وأصلُ (حسر): كشفُ الشَّيءِ، فالحسرةُ انكِشافٌ عن حالِ النَّدامةِ.

فَرَّطْتُ: أي: قَصَّرتُ، وأصلُ (فرط): يدُلُّ على إزالةِ شَيءٍ مِن مكانِه، وتَنحيتِه عنه.

جَنْبِ اللَّهِ: أي: جانِبِه تعالى، أو أمْرِه، أو حَقِّه.

كَرَّةً: أي: رَجعةً إلى الدُّنيا، والكَرُّ: الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53).

سبب النزول:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: ((أنَّ ناسًا مِن أهلِ الشِّركِ كانوا قد قَتَلوا وأكثَروا، وزَنَوا وأكثَروا، فأتَوا مُحمَّدًا – ﷺ – فقالوا: إنَّ الَّذي تقولُ وتدعو إليه لَحَسَنٌ لو تُخبِرُنا أنَّ لِما عَمِلْنا كَفَّارةً، فنزَل: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ [الفرقان: 68]، ونزَلت: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ))(64).

---

(64) رواه البخاري (4810) واللَّفظُ له، ومسلم (122).

اختلف السلف في نزول الآية على أقوال: الأول: أنها نزلت في قوم من أهل الشرك، قالوا لما دُعوا إلى الإيمان بالله: كيف نؤمن وقد أشركنا وزنينا، وقتلنا النفس التي حرّم الله، والله يَعِد فاعلَ ذلك النار؟! الثاني: نزلت في قوم من أهل الإسلام، وقالوا: تأويل الكلام: إن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن يشاء، قالوا: وهي كذلك في مصحف عبد الله، وقالوا: إنما نزلت هذه الآية في قوم صدّهم المشركون عن الهجرة وفتنوهم، فأشفقوا أن لا يكون لهم توبة.

الثالث: نزلت في قوم كانوا يرون أهل الكبائر من أهل النار، فأعلمهم الله بذلك أنه يغفر الذنوب جميعًا لمن يشاء.

وقد رجّح ابنُ جرير (٢٠/ ٢٣٠) العموم، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَن قال: عنى –تعالى ذكره– بذلك جميعَ مَن أسرف على نفسه من أهل الإيمان والشرك؛ لأن الله عمَّ بقوله: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ جميع المسرفين، فلم يخصّص به مسرفًا دون مسرف.

فإن قال قائل: فيغفر الله الشرك؟ قيل: نعم، إذا تاب منه المشرك، وإنما عنى بقوله: ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعًا﴾ لمن يشاء، كما قد ذكرنا قبل أن ابن مسعود كان يقرؤه، وأن الله قد استثنى منه الشرك إذا لم يتب منه صاحبه، فقال: إن الله لا يغفر أن يُشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فأخبر أنه لا يغفر الشرك إلا بعد توبة بقوله: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحًا﴾

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

أي: قُلْ –يا مُحمَّدُ– مُبلِّغًا عن الله أنّه يقولُ: يا عباديَ الَّذين أكثَروا مِنَ السَّيِّئاتِ بالكُفرِ أو المعاصي، فأثقَلوا أنفُسَهم بالآثامِ: لا يَنقَطِعْ رَجاؤُكم وتَيأسُوا مِن رحمةِ اللهِ، مُعتَقدينَ أنَّ اللهَ لن يَغفِرَ لكم ذُنوبَكم.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((لو يَعلَمُ الكافِرُ ما عندَ اللهِ مِن الرَّحمةِ، ما قَنَطَ مِن جَنَّتِه أحَدٌ)).[65]

إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا.

أي: إنَّ اللهَ يَستُرُ الذُّنوبَ كُلَّها، ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بها.

كما قال تعالى: وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا [النساء: 110].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ [الشورى: 25].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((والَّذي نفْسي بيَدِه، لو لم تُذْنِبوا لَذَهَبَ اللهُ بكم، ولجَاءَ بقَومٍ يُذْنِبون، فيَستغفِرونَ اللهَ فيَغفِرُ لهم)).[66]

[الفرقان: ٧٠]، فأما ما عداه فإن صاحبه في مشيئة ربه؛ إن شاء تفضّل عليه، فعفا له عنه، وإن شاء عدل عليه فجازاه به».

وبنحوه ابنُ عطية (٧/ ٤٠٣)، قال: «هذه الآيةُ عامةٌ في جميع الناس إلى يوم القيامة؛ في كل كافر ومؤمن، أي: إنّ توبة الكافر تمحو ذنوبه، وتوبة العاصي تمحو ذنبه».

(65) رواه مسلم (2755).

(66) رواه مسلم (2749).

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: ((قال اللهُ تبارك وتعالى: يا ابنَ آدَمَ إنَّك ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَني غفَرتُ لك على ما كان فيك ولا أُبالي، يا ابنَ آدَمَ لو بلَغَتْ ذُنوبُك عَنانَ السَّماءِ[67] ثمَّ استغفَرْتَني غفَرْتُ لك ولا أُبالي، يا ابنَ آدَمَ إنَّك لو أتَيْتَني بقُرابِ[68] الأرضِ خَطايا ثمَّ لَقيتَني لا تُشرِكُ بي شيئًا لَأَتَيْتُك بقُرابِها مَغفِرةً))[69].

إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه البالِغُ المَغفِرةِ لِذُنوبِ عِبادِه، العَظيمُ الرَّحمةِ بهم.

وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54).

وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ.

---

(67) عَنانَ السَّماءِ: أي: سَحابَها وما علا منها.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (4/1620).

(68) بقُرابِ الأرضِ: أي: بمِثْلِها وقدرِها، أو: بما يقاربُ ملأَها.

يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (4/34)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (7/387).

(69) أخرجه الترمذي (3540) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (4305)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (2/231).

صحَّح الحديثَ ابنُ القيِّم في ((أعلام الموقعين)) (1/204)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (3540)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((رياض الصالحين)) (442)، وقال ابن رجب في ((جامع العلوم والحِكَم)) (2/400): (إسنادُه لا بأس به).

والحديثُ أخرجه من طريقٍ آخَرَ ابنُ شاهين في ((الترغيب في فضائل الأعمال)) (179)، والضياءُ في ((الأحاديث المختارة)) (4/399).

وصحَّح إسنادَه الضياءُ المقدسيُّ، وصحَّحه ابنُ القيِّم في ((هداية الحيارى)) (246).

أي: وارجِعوا –أيُّها النَّاسُ– إلى رَبِّكم، بالتَّوبةِ إليه وطاعتِه وَحْدَه، واستَسلِموا واخضَعوا له، وانقادُوا إليه.

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ.

أي: مِن قَبلِ أن يأتيَكم عَذابُ اللهِ على كُفرِكم به، ومَعصيتِكم إيَّاه، ثمَّ لا يَنصُرُكم ناصِرٌ.

كما قال تعالى: أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ [الأعراف: 97 – 99].

وقال سُبحانَه: أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ [النحل: 45 – 47].

وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55).

وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ.

أي: واتَّبِعوا القُرآنَ فصَدِّقوا أخبارَه، واتَّعِظوا واعتَبِروا بقَصَصِه وأمثالِه، وامتَثِلوا أوامِرَه، واجتَنِبوا نواهيَه، وكِلُوا مُتشابِهَه إلى عالِمِه.

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ.

أي: مِن قَبلِ أن يأتيَكم عذابُ اللهِ فَجأةً وأنتم غافِلونَ لا تَشعُرونَ بمَجيئِه.

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56).

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ.

أي: لِئَلَّا تقولَ نَفْسٌ يومَ القيامةِ تَحسُّرًا على عدَمِ التَّوبةِ: يا ندامَتي على ما قصَّرتُ في حَقِّ اللهِ، وضَيَّعتُ مِن العملِ بما أمَرني به.

وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ.

أي: والحالُ أنَّني كُنتُ مِن السَّاخِرينَ مِن أمْرِ اللهِ وكِتابِه، ورَسولِه والمُؤمنينَ.

كما قال الله تعالى: إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ [المؤمنون: 109، 110].

وقال سُبحانَه: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ [المطففين: 29 – 32].

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57).

أي: ولِئَلَّا تَقولَ نَفْسٌ: لو أنَّ اللهَ هداني إلى الحَقّ لَكُنتُ مِن الَّذين اتَّقَوه فأطاعوه، واجتَنَبوا الشِّركَ به، ومَعصيتَه.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((كُلُّ أهلِ النَّارِ يَرى مَقعَدَه مِن الجَنَّةِ، فيَقولُ: لو أنَّ اللهَ هداني، فيَكونُ عليه حَسْرةٌ، وكُلُّ أهلِ الجَنَّةِ يَرى مَقعَدَه مِنَ النَّارِ، فيَقولُ: لولا أنَّ اللهَ هداني، فيكونُ له شُكرٌ)).[70]

---

(70) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (11454) مختصرًا، وأحمد (10652) واللَّفظُ له.
صحَّحه الحاكمُ على شرطِ الشَّيخينِ في ((المستدرك)) (2/473)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (10/402): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ).
وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (4514)، وصَحَّح شعيبُ الأرناؤوطُ إسنادَه على شرط البخاريِّ في تخريج ((مسند أحمد)) (16/382).

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58).

أي: أو لِئَلَّا تقولَ نَفْسٌ حينَ ترَى عذابَ اللهِ في الآخِرةِ: لَيْتَ لي رَجعةً إلى الدُّنيا فأكونَ مِن الَّذين أحسَنوا العَمَلَ.

كما قال تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [الأنعام: 27].

بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (59).

أي: يَقولُ اللهُ مُكَذِّبًا له: ليس الأمرُ كما تَقولُ؛ فقد جاءتك آياتُ القُرآنِ الدَّالَّةُ على الحَقِّ، فكَذَّبْتَ بها واستكبَرْتَ عن قَبولِها واتِّباعِها، وكنتَ في الدُّنيا مِن الكافِرينَ بها؛ فلا عُذرَ لك.

سُورةُ الزُّمَرِ

الآيات (60–66)

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ
(60) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ
شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (63) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64) وَلَقَدْ
أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ
(65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66)

غريب الكلمات:

مَثْوًى: أي: مَنزِلٌ ومقامٌ ومأوًى، والثَّواءُ: الإقامةُ مع الاستِقرارِ؛ يُقالُ: ثَوَى يَثْوي ثَواءً، وأصلُ (ثوي): يدلُّ على الإقامةِ.

بِمَفَازَتِهِمْ: أي: بفوزِهم ومَنجاتِهم وفَلاحِهم، والفوزُ: الظَّفَرُ بالخَيرِ مع حُصولِ السَّلامةِ، وأصلُه: يدُلُّ على النَّجاةِ.

مَقَالِيدُ: أي: مَفاتيحُ، وقيل: هي الخَزائِنُ، سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تحفَظُ الأشياءَ وتَحوزُها، وقيل: أصلُها كلمةٌ فارسيةٌ.

لَيَحْبَطَنَّ: أي: لَيَبْطُلَنَّ؛ فالحَبَطُ: البُطلانُ والألَمُ، وأصلُه: أن تُكثِرَ الدَّابَّةُ أكلًا حتَّى يَنتفِخَ بطنُها فتَموتَ.

تفسير الآيات:

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60).

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ.

أي: وترى يومَ القيامةِ المُشركِينَ الَّذين كَذَبوا على اللهِ -بادّعاءِ أنَّ له شَريكًا أو وَلَدًا، أو زعْمِ أنَّه شَرَع شَيئًا وهو لم يَشرَعْه، إلى غيرِ ذلك- وُجوهُهم قد اسودَّتْ.

كما قال تعالى: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ [آل عمران: 106].

أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ.

أي: أليس في جهنَّمَ مَقامٌ ومُستقَرٌّ للَّذين تَكَبَّروا عن الحَقّ، فأعرَضوا عن توحيدِ اللهِ، وقَبولِ شَرعِه، وامتَنَعوا عن طاعتِه في أمْرِه ونَهْيِه؟

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [غافر: 60].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيّ – ﷺ –، قال: ((لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كان في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ. قال رجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أن يكونَ ثَوبُه حَسَنًا، ونَعْلُه حَسَنةً. قال: إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ. الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ،[71] وغَمْطُ النَّاسِ))[72]. [73]

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيّ – ﷺ –، قال: ((يُحشَرُ المُتكَبِّرون يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ[74] في صُوَرِ الرِّجالِ، يَغْشاهم الذُّلُّ مِن كُلِّ مَكانٍ، فيُساقُونَ إلى سِجنٍ في جهنَّمَ يُسمَّى «بُولَسَ»، تَعلوهم نارُ الأنْيارِ،[75] يُسْقَونَ مِن عُصارةِ أهلِ النَّارِ؛ طِينةِ الخَبالِ))[76]. [77]

---

(71) بطَرُ الحَقِّ: دَفْعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتجبُّرًا.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (90/2).

(72) الغَمْطُ: الازدِراءُ والاحتِقارُ.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (490/10).

(73) رواه مسلم (91).

(74) أمثالَ الذَّرِّ: أي: مِثلَ الذَّرَّةِ –وهي النَّملةُ الصَّغيرةُ– في الصِّغَرِ والحَقارة.

يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (256/5)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3192/8).

(75) نارُ الأنْيارِ: أي: نارُ النِّيرانِ، وإضافةُ النَّارِ إليها للمُبالغةِ، كأنَّ هذه النَّارَ لِفَرطِ إحراقِها وشِدَّةِ حَرِّها تَفعَلُ بسائرِ النِّيرانِ ما تَفعَلُ النَّارُ بغَيرِها، أو لأنَّها أصلُ نِيرانِ العالَمِ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3193/8).

(76) طِينةِ الخَبالِ: تفسيرٌ لِما قَبْلَه، وهو اسمُ عُصارةِ أهلِ النَّارِ، وهو ما يَسيلُ منهم مِنَ الصَّديدِ والقَيحِ والدَّمِ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3193/8).

(77) أخرجه الترمذي (2492) واللَّفظُ له، وأحمد (6677).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2492)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (157/10)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (260/11).

وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61).

وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ.

أي: ويُنَجِّي اللهُ الَّذين اتَّقَوُا اللهَ بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتِنابِ ما نَهَى، بفوزِهم: بنَجاتِهم مِن النَّارِ، ودُخولِهم الجنَّة.

كما قال تعالى: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا [النبأ: 31 – 36].

لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

أي: لا يُصيبُ المتَّقينَ في الآخِرةِ سُوءٌ، ولا يُصيبُهم حُزنٌ أبَدًا.

كما قال الله سُبحانَه وتعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ [الحجر: 45، 46].

وقال سُبحانَه: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [الأنبياء:101 – 103].

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62).

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

أي: اللهُ وَحْدَه خالِقُ الأشياءِ كُلِّها، فهو ربُّها ومالِكُها، والمتفرِّدُ بالتَّصرُّفِ فيها.

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ.

أي: واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قائِمٌ وحافِظٌ، ومُدَبِّرٌ له.

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (63).

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: أزِمَّةُ الأمورِ بيَدِ اللهِ تعالى وَحْدَه لا شَريكَ له، فعِندَه وَحْدَه خَزائِنُ السَّمواتِ والأرضِ ومفاتيحُها، وهو المُنفَرِدُ بتَدبيرِها والتَّصرُّفِ فيها.

كما قال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ [الحجر: 21].

وقال سُبحانَه: مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [فاطر: 2].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((يدُ اللهِ مَلْأى لا تَغِيضُها[78] نَفَقةٌ، سَحَّاءُ اللَّيلَ والنَّهارَ،[79] أرَأَيْتُم ما أنفقَ مُنذُ خَلَقَ السَّماءَ والأرضَ؟ فإنَّه لم يَغِضْ ما في يَدِه، وكان عَرشُه على الماءِ، وبيَدِه الميزانُ، يَخفِضُ ويَرفَعُ)).[80]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

أي: والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ وحُجَجِه الدَّالَّةِ عليه –سُبحانَه– وعلى وَحدانيَّتِه: أولئك هم الَّذين خَسِروا نَصيبَهم مِنَ الخَيرِ الَّذي بيَدِ اللهِ تعالى؛ فهم مَخذولونَ في الدُّنيا عن الإيمانِ والعمَلِ الصَّالِحِ، مُخَلَّدونَ يومَ القيامةِ في النَّارِ، محرومونَ مِن دُخولِ الجنَّةِ.

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ [الزمر: 15].

---

(78) لا تَغِيضُها: أي: لا تَنقُصُها.

يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (10/386).

(79) سَحَّاءُ اللَّيلَ والنَّهارَ: أي: دائِمةُ الصَّبِّ والهَطلِ بالعَطاءِ.

يُنظر: ((المصدر السابق)).

(80) رواه البخاري (4684) واللفظ له، ومسلم (993).

قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64).

أي: قُلْ –يا مُحمَّدُ– لِمُشرِكي قُرَيشٍ: أتأمُرونَني بعِبادةِ غَيرِ اللهِ تعالى، أيُّها الجاهِلونَ بعَظَمتِه وباستِحقاقِه العِبادةَ وَحْدَه دونَ ما سِواه؟!

كما قال تعالى: قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [الأنعام: 14].

وقال سُبحانَه: قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ [الأنعام: 164].

وقال عزَّ وجَلَّ: فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ [القلم: 8، 9].

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65).

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ.

أي: ولقد أُوحِيَ إليك –يا مُحمَّدُ– وأُوحِيَ إلى الَّذين من قَبْلِك مِنَ الأنبياءِ: لَئِنْ أشرَكْتَ باللهِ لَيَبطُلَنَّ عَمَلُك الصَّالِحُ، فلا يُثيبُك اللهُ عليه.

كما قال الله تعالى: وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأنعام: 84 – 88].

وقال سُبحانَه وتعالى: وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [البقرة: 217].

وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

أي: ولَتَكونَنَّ –إنْ أشرَكْتَ باللهِ– مِن جُملةِ الَّذين خَسِروا ثوابَ أعمالِهم، واستحقُّوا عذابَ اللهِ.

كما قال تعالى: وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ [المائدة: 5].

بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66).

بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ.

أي: بَلِ اعبُدِ اللهَ وَحْدَه –يا مُحمَّدُ– دونَ ما سِواه مِن الآلهةِ، مُخلِصًا له في عِبادتِك.

وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ.

أي: وكُنْ مِنَ الشَّاكِرينَ للهِ على نِعَمِه بالأعمالِ الصَّالحةِ.

كما قال تعالى: اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ [سبأ: 13].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ - ﷺ -إذا صلَّى قام حتَّى تَفطَّرَ رِجْلاه! قالت عائِشةُ: يا رَسولَ اللهِ، أتصنَعُ هذا وقد غُفِرَ لك ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِك وما تأخَّرَ؟! فقال: يا عائِشةُ، أفلا أكونُ عَبدًا شَكورًا؟!)).[81]

(81) رواه البخاري (4837)، ومسلم (2820) واللَّفظُ له.

سُورةُ الزُّمَرِ

الآيات (67–70)

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي
الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ
بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
(69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70)

غريب الكلمات:

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ: أي: ومَا عظَّموا اللهَ حقَّ عظمتِه، ولا وصَفوه بصِفَتِه الَّتي تَنْبَغي له تعالَى، ولا نزَّهوه عمَّا لا يليقُ به، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايتِه.

قَبْضَتُهُ: أي: مَقْبوضةٌ له، والقَبْضُ: تَناولُ الشَّيءِ بجَميعِ الكَفِّ، وأصلُ (قبض): يَدُلُّ على شَيءٍ مأْخوذٍ وتَجَمُّعٍ في شَيءٍ.

مَطْوِيَّاتٌ: مِن الطَّيِّ الذي هو ضِدُّ النَّشرِ، وأصل (طوي): يدُلُّ على إدراجِ شَيءٍ حتَّى يُدرَجَ بعْضُه في بعضٍ.

الصُّورِ: أي: القَرْنِ الذي يَنفُخُ فيه إسرافيلُ.

فَصَعِقَ: أي: مات، وأصلُ (صعق): يدُلُّ على شَدَّةِ صَوتٍ.

وَأَشْرَقَتِ: أي: أضاءتْ، يُقالُ: شَرَقَت الشَّمسُ؛ إذا طَلَعت، وأشْرَقَت؛ إذا أضاءتْ، وأصلُ (شرق): يدُلُّ على إضاءةٍ وفتْحٍ.

وَوُفِّيَتْ: أي: جُوزِيَتْ مُكَمَّلًا، والتَّوفيةُ: إعطاءُ الشَّيءِ وقَضاؤُه وافيًا لا نَقْصَ فيه، وأصلُ (وفي): يدُلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ.

تفسير الآيات:

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67).

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ.

أي: وما عظَّم المُشرِكونَ اللهَ كما يَنْبغي له؛ حيثُ عَبَدوا معه غيرَه، ولم يَصِفُوه بصِفَتِه الَّتي تَنْبَغي له تعالَى.

وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

أي: ما قَدَروا اللهَ حَقَّ قَدْرِه، والحالُ أنَّ الأرضَ كُلَّها في قَبضتِه، يَقبِضُها بيَدِه يومَ القِيامةِ.[82]

---

(82) قال ابنُ كَثيرٍ: (وقد وَرَدَتْ أحاديثُ كثيرةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بهذه الآيةِ الكريمةِ، والطَّريقُ فيها وفي أمثالِها مَذهبُ السَّلَفِ، وهو إمْرارُها كما جاءَتْ مِن غيرِ تَكييفٍ ولا تَحْريفٍ).

((تفسير ابن كثير)) (113/7).

وقال ابنُ عُثَيْمين ردًّا على مَن فسَّر القبضَ بالملكِ والتَّصرُّفِ، قال: (وفي هذا نظرٌ ظاهرٌ، بل هذا تحريفٌ؛ لأنَّ الملكَ والتَّصرُّفَ...

يومَ القيامةِ وقبْلَ يومِ القيامةِ، لكنَّ القبضةَ بمعنى المقبوضةِ التي تكونُ في اليدِ تُحيطُ بها اليدُ، فالصَّوابُ المُتعيِّنُ أن يُقالَ: المرادُ بالقبضةِ أنَّها في قبضةِ يدِه عزَّ وجلَّ).

((تفسير ابن عثيمين– سورة الزمر)) (ص: 448).

عن عبد الله، قال: أتى النبيَّ – ﷺ – رجلٌ من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، بلغك أنّ الله يحمل الخلائق على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثَّرى على إصبع، ثم يقول: أنا الملك؟ فضحك رسولُ الله – ﷺ – حتى بدتْ نواجذه؛ فأنزل الله: ﴿وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، عن رَسولِ الله – ﷺ – أنَّه قال: ((إنَّ اللهَ يَقبِضُ يومَ القِيامةِ الأرضَ، وتكونُ السَّمَواتُ بيَمينِه، ثمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ!)).[83]

وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ.

أي: والسَّمَواتُ السَّبعُ كُلُّها يَطويها اللهُ بيَدِه اليُمنى.[84]

ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤١١) هذا الأثر، ثم علّق عليه قائلًا: «فرسول الله – ﷺ – تمثّل بالآية، وقد كانت نزلت.

وقوله في الحديث: «تصديقًا له».

أي: في أنه لم يقل إلا ما رأى في كتب اليهود، ولكن النبي – ﷺ – أنكر المعنى؛ لأن التجسيم فيه ظاهر، واليهود معروفون باعتقاده، ولا يحسنون حمله على تأويله من أن الأصبع عبارة عن القدرة، أو من أنها أصبع خلق يخلق لذلك، ويعضّدها تنكير الأصبع».

وما قاله ابن عطيه باطل، والحق إثبات صفه الأصابع لله تعالى على ما يليق بكماله وعظمته وجلاله، وهو إجماع السلف من الصحابة والتابعين وأتباعهم.

ينظر: الشريعة ٣/ ١١٤٧ – ١١٧٧، والإبانة ٣/ ٩١ – ١٣١، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/ ٤٥١ – ٤٨٠.

(83) رواه البخاري (7412) واللفظ له، ومسلم (2788).

(84) قال ابنُ تَيميَّةَ: (لم يَكُنِ العَرشُ داخلًا فيما يُقبَضُ ويُطوَى ويُبدَّلُ ويُغيَّرُ، كما قال في الآية: وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ [الحاقة: 14 – 17]).

((بيان تلبيس الجهمية)) (469/1).

بيّن ابنُ جرير (٢٠/ ٢٤٥ – ٢٥١) أن الخبر عن الأرض في قوله: ﴿والأرض جميعا قبضته﴾ مُتَناهٍ عند قوله تعالى: ﴿يوم القيامة﴾، ثم استُأنف الخبر عن السماوات بقوله: ﴿والسماوات مطويات بيمينه﴾، ثم حكى خلافًا عن السلف في ذلك على قولين، الأول: «أن السماوات والأرض جميعًا بيمينه».

الثاني: «أن السماوات بيمينه، والأرضون بشماله».

كما قال تعالَى: يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ [الأنبياء: 104].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله – ﷺ –: ((يَقبِضُ اللهُ الأرضَ، ويَطوي السَّمَواتِ بيَمينِه، ثمَّ يَقولُ: أنا المَلِكُ، أين مُلوكُ الأرضِ؟!)).[85]

وعن مُجاهِدٍ قال: قال ابنُ عبَّاسٍ: ((أتَدْري ما سَعةُ جهنَّمَ؟ قُلتُ: لا، قال: أجَلْ، واللهِ ما تَدري! حدَّثَتْني عائِشةُ أنَّها سَألَت رَسولَ اللهِ – ﷺ – عن قَولِه: وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، قالت: قُلتُ: فأينَ النَّاسُ يَومَئذٍ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: على جِسرِ جهنَّمَ)).[86]

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء حَبْرٌ[87] إلى النَّبيِّ – ﷺ –، فقال: يا محمَّدُ –أو يا أبا القاسِمِ– إنَّ اللهَ تعالى يُمسِكُ السَّمَواتِ يومَ القِيامةِ على إصْبَعٍ، والأَرَضينَ على إصْبَعٍ، والجِبالَ

---

(85) رواه البخاري (4812) واللفظ له، ومسلم (2787).

(86) أخرجه الترمذي (3241) واللفظ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (11453)، وأحمد (24856).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه).

وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (3630)، وصحَّح الحديثَ ابنُ الملقِّن في ((شرح البخاري)) (178/19)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3241)، وصحَّح إسناده شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (24856).

وأخرجه من طريقٍ آخَرَ وبلفظٍ مُقاربٍ: التِّرمذيُّ (3242) عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّها قالت: ((يا رَسولَ اللهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، فأين المؤمِنونَ يومَئذٍ؟! قال: على الصِّراطِ يا عائِشةُ)).

قال الترمذيُّ: (حسنٌ صحيحٌ).

وصحَّحه ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (314/6)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3242).

(87) الحَبْرُ: العالِم، والمرادُ هنا حَبْرٌ مِن أحبارِ اليَهودِ آنذاك.

يُنظر: ((إكمال المعلِم)) للقاضي عياض (315/8، 316)، ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (270/1).

والشَّجرَ على إصْبَعٍ، والماءَ والثَّرَى على إصْبَعٍ، وسائِرَ الخَلقِ على إصْبَعٍ، ثمَّ يَهُزُّهنَّ، فيَقولُ: أنا المَلِكُ، أنا المَلِكُ! فضَحِكَ رَسولُ الله - ﷺ - تعجُّبًا ممَّا قال الحَبرُ؛ تصديقًا له، ثمَّ قرأ: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)).[88]

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ.

أي: تَنزَّه اللهُ وعَلا عن شِركِ المُشرِكينَ عُلُوًّا عَظيمًا.

(88) رواه البخاري (4811)، ومسلم (2786) واللفظ له.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68).

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ.

أي: ويُنفَخُ في البُوقِ العَظيمِ يومَ القِيامةِ نَفخةٌ يَموتُ بها أهلُ السَّمَواتِ وأهلُ الأرضِ إلَّا مَن استَثناه اللهُ منهم.(89)

عن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: ((استَبَّ رَجُلانِ: رجُلٌ مِن المُسلِمينَ، ورجُلٌ مِن اليَهودِ؛ قال المُسلِمُ: والذي اصْطفَى محمَّدًا على العالَمينَ، فقال اليهوديُّ: والذي اصْطفَى موسَى على العالَمينَ، فرَفَع المُسلِمُ يَدَه عِندَ ذلك فلَطَم وَجهَ اليَهوديّ، فذهَبَ اليَهوديُّ إلى النَّبيِّ - ﷺ -، فأخبَرَه بما كان مِن أمْرِه وأمرِ المُسلِمِ، فدعا النَّبيُّ - ﷺ - المُسلِمَ، فسَألَه عن ذلك، فأخبَرَه، فقال النَّبيُّ - ﷺ -: لا

(89) اختُلف في الذي عنى الله بالاستثناء في هذه الآية على أقوال: الأول: عنى به: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت.
الثاني: عنى بذلك: الشهداء.
الثالث: عنى بالاستثناء في الفزع: الشهداء، وفي الصعق: جبريل، وملك الموت، وحملة العرش.
وقد رجّح ابن جرير (٢٠/ ٢٥٧) -مستندًا إلى الدلالة العقلية- القول الثالث، وانتقد القول الثاني، معللًا ذلك بقوله: «لأن الصعقة في هذا الموضع: الموت، والشهداء وإن كانوا عند الله أحياء -كما أخبر الله تعالى ذكره- فإنهم قد ذاقوا الموت قبل ذلك، وإنما عنى -جل ثناؤه- بالاستثناء في هذا الموضع: الاستثناء من الذين صعقوا عند نفخة الصعق، لا من الذين قد ماتوا قبل ذلك بزمان ودهر طويل؛ وذلك أنه لو جاز أن يكون المراد بذلك مَن قد هلك وذاق الموت قبل وقت نفخة الصعق؛ وجب أن يكون المراد بذلك: مَن قد هلك، فذاق الموت من قبل ذلك، لأنه ممن لا يصعق في ذلك الوقت إذا كان الميت لا يجدد له موت آخر في تلك الحال».

تُخَيِّروني على مُوسى؛ فإنَّ النَّاسَ يَصعَقونَ يومَ القِيامةِ فأَصعَقُ معهم، فأكونُ أوَّلَ مَن يُفيقُ، فإذا مُوسى باطِشٌ[90] جانِبَ العَرشِ! فلا أدْري أكان فيمَن صَعِقَ فأفاقَ قَبْلي، أو كان ممَّن استَثنى اللهُ!)).[91]

ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ.

أي: ثمَّ يُنفَخُ في البُوقِ نَفخةٌ ثانيةٌ،[92] فإذا الذين صَعِقوا قدْ قاموا يَنظُرونَ.[93]

---

(90) باطِشٌ: أي: آخِذٌ بقُوَّةٍ.

يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (424/10).

(91) رواه البخاري (2411) واللفظ له، ومسلم (2373).

(92) قيل: هي النَّفخةُ الثَّانيةُ، وهي نفخةُ البَعثِ والنُّشورِ، وإحياءِ العِبادِ مِن القُبورِ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جَرير، والماوَرْديُّ، وأبو السُّعود، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (254/20)، ((تفسير الماوردي)) (136/5)، ((تفسير أبي السعود)) (263/7)، ((تفسير السعدي)) (ص: 729).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (259/20).

وقيل: هي نَفخةُ البَعثِ، ولكِنَّها الثَّالثةُ بعْدَ نَفختَيِ الفَزَعِ ثمَّ الصَّعقِ.

وممَّن ذهَب إلى هذا: ابنُ كَثير.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (116/7) وَ(211/8).

وقيل: هي النَّفخةُ الرَّابعةُ التي يُفيقُ بها العِبادُ مِن غَشْيَتِهم، وهي الثَّانيةُ مِن نفْختَينِ بعْد البَعثِ.

وممَّن ذهَب إلى هذا القول: البقاعيُّ.

يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (553/16، 558- 561).

(93) واختلَف المفَسِّرون في معنى يَنْظُرُونَ؛ فقيل: يَقلِبون أبصارَهم في الجِهاتِ نظَرَ المبهوتِ إذا فاجأهُ خطْبٌ.

وممَّن اختاره الزَّمخشريُّ، وابنُ عادلٍ.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (145/4)، ((تفسير ابن عادل)) (549/16).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (477/27).

وقيل: يَنظُرونَ إلى أهوالِ يومِ القِيامةِ.

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69).

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا.

أي: وأضاءت أرضُ المحشَرِ بنُورِ رَبِّها إذا تجلَّى لِفَصلِ القَضاءِ بيْنَ عِبادِه.

كما قال تعالَى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ [البقرة: 210].

وقال سُبحانَه: وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا [الفجر: 22].

وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (116/7).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (281/15).

وقيل: النَّظَرُ هنا بمعنى الإبصارِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم حَيُوا حَياةً كامِلةً لا غِشاوةَ معها على أبْصارِهم.

وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (65/24).

وقيل: هذا النَّظَرُ بمعنى الانتِظارِ، أي: ينتَظِرون أمْرَ اللهِ فيهم.

وممَّن اختاره: الواحديُّ، والبَغَويُّ، والخازن.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 938)، ((تفسير البغوي)) (100/4)، ((تفسير الخازن)) (64/4).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (281/15).

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القِيامةِ على أرضٍ بَيضاءَ عَفراءَ،[94] كقُرصةِ النَّقِيّ،[95] ليس فيها عَلَمٌ[96] لأحدٍ)).[97]

وعن أبي مُوسى الأشعريّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ لا يَنامُ، ولا يَنْبغي له أن يَنامَ، يَخفِضُ القِسطَ ويَرفَعُه، يُرفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهارِ، وعَمَلُ النَّهارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيلِ، حِجابُه النُّورُ، لو كشَفَه لَأحرَقَت سُبُحاتُ[98] وَجْهِه ما انتهَى إليه بَصَرُه مِن خَلْقِه)).[99]

---

(94) عَفْراءَ، أي: غيرِ شَديدةِ البَياضِ، بلْ يَضرِبُ بياضُها إلى الحُمرةِ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3510/8).
(95) كقُرصَةِ النَّقِيّ: القُرصةُ: الرَّغيفُ، والنَّقِيُّ: هو الدَّقيقُ المنخولُ المُنظَّفُ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3510/8).
(96) عَلَمٌ: أي: عَلامةٌ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3510/8).
(97) رواه البخاري (6521)، ومسلم (2790) واللفظ له.
قال البخاري: (قالَ سهلٌ أوْ غيرُه: «ليسَ فيها مَعْلَمٌ لأحدٍ»).
قال ابن حجر: (وقَع هذا الكلامُ الأخيرُ لمسلمٍ...
مدرجًا بالحديث، ولفظُه: «ليس فيها علمٌ لأحدٍ»).
((فتح الباري)) (375/11).
(98) سُبُحاتُ: جَمعُ سُبْحَةٍ: أيْ: أنوارُ وَجْهِه.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (166/1).
(99) رواه مسلم (179).

وعن عَبدِ اللهِ بنِ شَقيقٍ، قال: قُلتُ لأبي ذَرٍّ: لو رأيتُ رَسولَ اللهِ – ﷺ –لَسَألتُه. فقال: عن أيِّ شَيءٍ كُنتَ تَسألُه؟ قال: كنتُ أسألُه: هلْ رأيتَ ربَّك؟ قال أبو ذَرٍّ: قدْ سألتُ، فقال: ((رأيتُ نُورًا)).[100]

وَوُضِعَ الْكِتَابُ.

أي: وأُحضِرت كُتُبُ أعْمالِ العِبادِ[101] يومَ القِيامةِ، ووُضِعَتْ لِمُحاسبتِهم ومُجازاتِهم بما فيها مِن خَيرٍ أو شَرٍّ.

كما قال تعالَى: وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا [الإسراء: 13، 14].

وقال سُبحانَه: وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا [الكهف: 49].

---

(100) رواه مسلم (178).

ومعْنَى قولِ النبيِّ – ﷺ – لأبي ذَرٍّ: ((رَأَيْتُ نُورًا)): أنَّه رَأَى الحجابَ؛ ففي ((صحيح مسلم)) (179) أيضًا عن أبي مُوسَى الأشعريِّ رَضِي اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((حِجابُه النُّورُ، لوْ كَشَفَه لَأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجهِه ما انتهَى إليه بَصَرُه مِن خَلْقِه))، وجاء في روايةٍ لحديثِ أبي ذَرٍّ عندَ مسلمٍ أيضًا (178): ((نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ)): أي: النُّورُ الَّذي هو الحجابُ يَمنَعُ مِن رُؤيَتِه سُبحانَه؛ فأنَّى أراهُ؟ أي: فكيْفَ أراهُ والنُّورُ حِجابٌ بيْني وبيْنَه يَمنَعُني مِن رُؤيتِه؟! وهذا صَريحٌ في نفْيِ رُؤيةِ النبيِّ – ﷺ – رَبَّه بعَيْني رأسِه في الدُّنيا.

يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (48/2)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (224/1).

(101) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٤١٣) قولًا في قوله: ﴿ووضع الكتاب﴾ [الكهف: ٤٩] فقال: «وقالت فرقة: وضع اللوح المحفوظ».

ثم انتقده –مستندًا إلى ظاهر الآية– بقوله: «وهذا شاذ، وليس فيه معنى التوعد، وهو مقصد الآية».

وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ.

أي: وجِيءَ بالنَّبِيِّينَ لِيَسألَهم رَبُّهم عمَّا أجابتَهْم به أُمَمُهم، وجِيءَ بالَّذين يَشهَدونَ على النَّاسِ بأعْمالِهِم.(102)

كما قال تعالَى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [البقرة: 143].

وقال سُبحانَه: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا [النساء: 41].

---

(102) في معنى الشهداء ثلاثة أقوال: الأول: أنهم الذين يشهدون للأنبياء بالبلاغ.

الثاني: أنهم الذين استُشهدوا في سبيل الله.

الثالث: أنهم الحفظة.

وقد رجّح ابنُ جرير (٢٠/ ٢٦٢ – ٢٦٣) –مستندًا إلى النظائر– القول الأول، فقال: «والشهداء: جمع شهيد، وهذا نظير قول الله: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ [البقرة: ١٤٣]».

وانتقد الثاني الذي قاله قتادة، والسدي –مستندًا إلى السياق، وأقوال السلف– فقال: «وقيل: عني بقوله: ﴿الشهداء﴾: الذين قُتلوا في سبيل الله؛ وليس لما قالوا من ذلك في هذا الموضع كبير معنى؛ لأن عقيب قوله: ﴿وجيء بالنبيين والشهداء﴾: ﴿وقضي بينهم بالحق﴾، وفي ذلك دليل واضح على صحة ما قلنا مِن أنّه إنما دعى بالنبيين والشهداء للقضاء بين الأنبياء وأممها، وأنّ الشهداء إنما هي جمع شهيد، الذين يشهدون للأنبياء على أممهم كما ذكرنا، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل».

وبنحوه ابنُ عطية (٧/ ٤١٣ بتصرف) مستندًا إلى ظاهر الآية، فقال: «وهذا أيضًا يزول عنه معنى التوعد، وهو مقصد الآية».

وزاد ابنُ عطية قولًا رابعًا في معنى الآية، فقال: «ويُحتمل أن يريد بقوله: ﴿والشُّهَدَاءِ﴾: الأنبياء أنفسهم، فيكون من عطف الصفة على الصفة بالواو، كما تقول: جاء زيد الكريمُ والعاقل».

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((يُجاءُ بنُوحٍ يومَ القِيامةِ، فيُقالُ له: هل بلَّغْتَ؟ فيقولُ: نعَمْ يا ربِّ، فتُسألُ أمَّتُه: هلْ بلَّغَكم؟ فيقولونَ: ما جاءَنا مِن نَذيرٍ! فيقولُ: مَن شُهودُك؟ فيقولُ: محمَّدٌ وأمَّتُه، فيُجاءُ بكم، فتَشهَدونَ. ثمَّ قرأَ رَسولُ اللهِ – ﷺ – وَكَذَلِك جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا قال: عَدْلًا، لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [البقرة: 143]))[103].

وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

أي: ويَحكُمُ اللهُ بيْنَ العِبادِ يومَ القِيامةِ بالعَدلِ التَّامِّ، ولا يَظلِمُهم شَيئًا؛ فلا يُعاقِبُ أحَدًا بما لم يَعمَلْه، أو يُحمِّلُه ذَنْبَ غيرِه، أو يَنقُصُه مِن أجْرِه، أو يَزيدُ في سَيِّئاتِه.

كما قال تعالَى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ [الأنبياء: 47].

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70).

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ.

أي: ويُوَفِّي اللهُ كُلَّ نَفْسٍ جزاءَ عَمَلِها مِن خيرٍ أو شَرٍّ.

---

(103) رواه البخاري (7349).

وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ.

أي: واللهُ أعلَمُ مِنَ النَّبيّينَ والشُّهَداءِ بما يَفعَلُ عِبادُه في الدُّنيا، وسيُجازيهم يومَ القِيامةِ بحَسَبِ أفعالِهم.

سُورةُ الزُّمَرِ

الآيتان (71–72)

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفرُوا إِلَى جهَنَّم زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ
يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ
حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ
مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72)

غريب الكلمات:

وَسِيقَ: أي: وحُشِر، والسَّوْقُ يَقْتَضي الحثَّ على المَسيرِ بعُنْفٍ، وهو الغالبُ فيه.

زُمَرًا: أي: جَماعاتٍ وأفْواجًا مُتفرِّقةً، وأصلُ (زمر) هنا: يدُلُّ على جِنْسٍ مِن الأصواتِ، واشتُقَّت الزُّمرةُ -بمعْنى الجماعةِ- مِن هذا؛ لأنَّها إذا اجْتَمَعتْ كانَتْ لها جَلَبَةٌ.

حَقَّتْ: أي: وجَبَت، والحقُّ نَقيضُ الباطلِ، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّته.

تفسير الآيتين:

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71).

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا.

أي: ويُساقُ الكُفَّارُ يوْمَ القِيامةِ إلى جهنَّمَ جَماعاتٍ مُتفرِّقةً.

كما قال تعالَى: وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا [مريم: 86].

وقال سُبحانَه: وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ [النمل: 83].

وقال عزَّ وجلَّ: وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ [التكوير: 7].

حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا.

أي: حتَّى إذا بلَغَ الكُفَّارُ جهنَّمَ فُتِحَت لهمْ أبوابُها السَّبعةُ فَجأةً فوْرَ وُصولِهم.

قال تَعالَى: وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ [الحجر: 43، 44].

وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ.

أي: وقال لهم خَزَنةُ جهنَّمَ القائِمونَ عليها، الموكَّلونَ بها: ألَمْ يَأتِكم رسُلٌ مِنكم يقرؤُونَ عليكم آياتِ ربِّكم التي أنْزَلَها إليكم؟

وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا.

أي: ويُخَوِّفونكم ويُحَذِّرونَكم شَرَّ يومِ القِيامةِ، ومَصيرَكم إليه؛ فتَستعِدُّوا له بالتَّقوى؟[104]

قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ.

أي: قال الذين كَفَروا مُجيبِينَ خَزَنةَ جهنَّمَ: بلَى! قدْ أتَتْنا رسُلٌ مِنَّا يقرؤُونَ علينا وَحْيَ رَبِّنا، ويُنذِرونَنا يوْمَ القِيامةِ، ولكِنْ كذَّبْناهم، ووَجَبتْ كَلِمةُ العذابِ -في عِلمِ اللهِ السَّابقِ- على الكافِرينَ به وبآياتِه ورُسُلِه.

كما قال الله تعالَى: وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ [المؤمنون: 103- 106].

---

(104) ذكر ابنُ جرير (٢٠/ ٢٦٤) في قوله: ﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ احتمالين، فقال: «﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ يقول: وينذرونكم ما تلقون في يومكم هذا.
وقد يحتمل أن يكون معناه: وينذرونكم مصيركم إلى هذا اليوم».

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [السجدة: 13].

وقال سُبحانَه: كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ [الملك: 8 – 11].

قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72).

قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا.

أي: فيُقالُ لهم: ادْخُلوا أبوابَ جَهنَّمَ السَّبعةَ ماكِثِينَ فيها أبدًا، لا يَنقَطِعُ عنكم عَذابُها، ولا أنتمْ تُخرَجونَ منها.

فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ.

أي: فبِئْسَ المَقامُ والمُستقَرُّ للمُتكبِّرينَ عن الحَقِّ، نارُ جهنَّمَ.

سُورةُ الزُّمَرِ

الآيات (73–75)

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(75))

غريب الكلمات:

نَتَبَوَّأُ: أي: نَنزِلُ ونَسكُنُ، وأصلُ (بوأ): يدُلُّ على رُجوعٍ إلى شَيءٍ.

فَنِعْمَ: نِعْمَ: كَلِمةٌ تُستعمَلُ في المدحِ، وهي مُقابِلُ (بِئْسَ) التي للذَّمِّ.

حَافِّينَ: أي: مُحيطينَ ومُطيفِينَ بحافَتَيهِ، وأصلُ (حفف): يدُلُّ على إطافةِ شَيءٍ بشَيءٍ.

تفسير الآيات:

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73).

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا.

أي: ويُساقُ يوْمَ القِيامةِ الذين اتَّقَوا رَبَّهم بامتِثالِ ما أمَرَ واجتِنابِ ما نَهَى: إلى الجنَّةِ أفواجًا وجَماعاتٍ.

كما قال تعالَى: يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا [مريم: 85].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((إنَّ أوَّلَ زُمرةٍ يَدخُلونَ الجَنَّةَ على صُورةِ القَمرِ ليلةَ البدْرِ، والذين يَلونَهم على أشَدِّ كَوكبٍ دُرِّيٍّ[105] في السَّماءِ إضاءةً؛ لا يَبولون، ولا يَتغوَّطون، ولا يَمتَخِطونَ، ولا يَتْفُلونَ، أمشاطُهم الذَّهبُ، ورَشْحُهم[106] المِسكُ، ومَجامِرُهم الألُوَّةُ،[107] وأزواجُهم

---

(105) دُرِّيّ: أي: مُضيءٍ مُتلالِئٍ.
يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (285/5).

(106) رَشْحُهم: أي: عَرَقُهم.
يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (321/5).

(107) مَجامِرُهم الألُوَّةُ: المجامِرُ: جَمعُ مِجمَرةٍ، وهي المِبخَرةُ، سُمِّيَت مِجمَرةً لأنَّها يُوضَعُ فيها الجَمرُ لِيَفوحَ به ما يُوضَعُ فيها مِنَ البَخورِ، والألُوَّةُ: العُودُ الهِنديُّ، جُعِلَت مَجامِرُهم نَفْسَ العُودِ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (172/17)، ((فتح الباري)) لابن حجر (324/6).

الحُورُ العِينُ، أخلاقُهم على خُلُقِ رجُلٍ واحدٍ،[108] على صُورةِ أبيهم آدمَ؛ سِتُّونَ ذِراعًا في السَّماءِ)).[109]

حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا.

أي: حتَّى إذا بلَغَ المتَّقونَ الجنَّةَ، وفُتِحت لهمْ أبوابُها.[110]

---

(108) على خُلُقِ رجُلٍ واحدٍ: رُوِيَ (خُلُق) بضَمِّ الخاءِ واللَّامِ، أي: أنَّهم على قَلبٍ واحِدٍ، أخلاقُهم مُتساويةٌ في الحُسنِ والكَمالِ، ورُوِي (خَلْق): بفَتحِ الخاء وتَسكينِ اللَّامِ، أي: أنَّهم في سِنٍّ واحدةٍ، مُتشابِهونَ فيما بيْنهم في الخِلْقةِ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (172/17)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3581/9)، ((الكوكب الوهاج)) للهرري (494/25).

(109) رواه البخاري (3327)، ومسلم (2834) واللفظ له.

(110) اختلَف المفسِّرون في جَوابِ إِذَا في هذه الآيةِ؛ فقيل: مَحذوفٌ، تَقديرُه: دَخَلوها.

وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جَرير، والزَّجَّاج.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (269/20)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (364/4).

وقيل: المحذوفُ تقديرُه: سَعِدوا وطابوا، وسُرُّوا وفَرِحوا.

وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (121/7).

وعلى هذينِ الوَجهَينِ فتكونُ الجملةُ مِنْ قَولِه: وَفُتِحَتْ في مَحلِّ نصْبٍ على الحالِ.

وقيل: الواوُ للعَطفِ على الجوابِ المحذوفِ، تَقديرُه: حتى إذا جاؤُوها هُذِّبوا ونُقُّوا وفُتِحَت أبوابُها.

وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: ابنُ عُثَيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: 498).

وقيل: جوابُ إِذَا قَولُه: وَفُتِحَتْ، والواوُ زائدةٌ، وهو رأيُ الكوفيِّينَ والأخفَشِ.

أو الجوابُ قَولُه: وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا على زِيادةِ الواوِ أيضًا، أي: حتى إذا جاؤُوها قال لهم خَزَنَتُها.

يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (447/9).

عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى عليه وسلَّم قال: ((ما مِنكم مِن أحدٍ يَتوضَّأُ فيَبلُغُ -أو فيُسبِغُ- الوُضوءَ، ثمَّ يقولُ: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا عَبدُ اللهِ ورَسولُه؛ إلَّا فُتِحَت له أبوابُ الجنَّةِ الثَّمانيةُ، يَدخُلُ مِن أيِّها شاءَ)).(111)

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ - ﷺ - قال: ((في الجنَّةِ ثَمانيةُ أبوابٍ، فيها بابٌ يُسمَّى الرَّيَّانَ، لا يَدخُلُه إلَّا الصَّائِمونَ)).(112)

قال القُرطبيُّ: (قد قيل: إنَّ زيادةَ الواوِ دَليلٌ على أنَّ الأبوابَ فُتِحَت لهم قبْلَ أنْ يأتوا؛ لكَرامتِهم على اللهِ تعالى، والتَّقديرُ: حتى إذا جاؤوها وأبوابُها مُفتَّحةٌ؛ بدَليلِ قولِه تعالى: جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ [ص: 50] ، وحُذِفت الواوُ في قِصَّةِ أهلِ النَّارِ؛ لأنَّهم وَقَفوا على النَّارِ وفُتِحَت بعْد وُقوفِهم؛ إذلالًا وترويعًا لهم.

ذكَره المَهْدويُّ، وحكَى معناه النحَّاسُ قَبْلَه).

((تفسير القرطبي)) (15/285).

ويُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (4/17، 18)، ((تفسير المهدوي)) (5/539).

وقال ابنُ عُثَيمين: (دعْوَى أنَّ أبوابَها فُتِحت قبلَ مَجيئِهم دَعوى لا يُسعِفُها الدَّليلُ؛ بل الدليلُ على خِلافِها؛ لأنَّهم إذا جاؤوها لا يَجِدونها مَفتوحةً، بل يَجِدونَها مُغْلَقةً، ثم يَشفَعُ النبيُّ - ﷺ - أن تُفتَحَ الأبوابُ لأهلِها).

((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: 501).

وقيل: إنَّ هذه واوٌ تُسمَّى (واوَ الثَّمانيةِ) تَدخُلُ على ما هو ثامِنٌ: إمَّا لأنَّه ثامِنٌ في التَّعدادِ، نَحوُ قَولِه تعالى: التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ إلى قَولِه: وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ [التوبة: 112]؛ فإنَّه الوَصفُ الثَّامِنُ في التَّعدادِ، وإمَّا لأنَّ فيه مادة ثمانيةٍ، كقَولِه تعالى: وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ [الكهف: 22]، فقالوا في وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا: جيءَ بالواوِ؛ لأنَّ أبوابَ الجنَّةِ ثمانيةٌ.

يُنظر ما قيل في هذه (الواو): ((مغني اللبيب)) لابن هشام الأنصاري (ص: 474)، ((تفسير ابن عاشور)) (24/72).

(111) رواه مسلم (234).

(112) رواه البخاري (3257) واللفظ له، ومسلِم (1152).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((آتِي بابَ الجنَّةِ يومَ القِيامةِ فأستفتِحُ، فيَقولُ الخازِنُ: مَن أنت؟ فأقولُ: مُحَمَّدٌ، فيقولُ: بك أُمِرتُ لا أفتَحُ لأحدٍ قَبْلَكَ))[113].

وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ.

أي: وقال خَزَنةُ الجَنَّةِ المُوكَّلونَ بها للمُتَّقينَ: تحيَّةٌ وأمَنةٌ مِنَ اللهِ لكم، فلا ينالُكم شَرٌّ ولا مَكروهٌ.

طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ.

أي: طابَت أعْمالُكم وأقْوالُكم، فصَلَحْتُم لِسُكنى الجنَّةِ، فادخُلوها ماكِثينَ فيها أبدًا.

قال تعالَى: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [النحل: 32].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((يَخلُصُ المؤمِنونَ مِن النَّارِ، فيُحبَسُون على قَنطرةٍ[114] بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيُقَصُّ[115] لِبَعضِهم مِن بَعضٍ مَظالِمُ كانت بيْنَهم في

---

(113) رواه مسلم (197).

(114) القَنطرةُ: الجِسْرُ، وهي عبارةٌ عن الصِّراطِ المَمدودِ بيْنَ الجنةِ والنارِ.
يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (5/527)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (8/3562).

(115) فيُقَصُّ: أي: يُمكَّنُ صاحِبُ الحَقِّ مِن أخْذِ القِصاصِ، وهو أنْ يَفعلَ به مِثلَ فِعلِه؛ مِن قتْلٍ، أو قَطعٍ، أو ضَرْبٍ، أو جرْحٍ.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (4/72).

الدُّنيا، حتَّى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دُخولِ الجنَّةِ؛ فوالَّذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لَأحَدُهم أَهدَى بمَنزِلِه في الجنَّةِ منه بمَنزِلِه كان في الدُّنيا)).(116)

وعن عبْدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ –قال: ((الجنَّةُ لا يدخُلُها إلَّا نَفْسٌ مُسلِمةٌ)).(117)

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74).

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ.

أي: وقال المُتَّقونَ: الحَمدُ للهِ وَحْدَه الذي حَقَّق لنا ما وعَدَنا مِنَ الثَّوابِ على طاعتِه في الدُّنيا، فأنجَزَه لنا في الآخِرةِ.

كما قال تعالَى: وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الأعراف: 43].

---

(116) رواه البخاري (6535).
(117) رواه البخاري (6528)، ومسلم (221).

وقال الله سُبحانَه: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ [فاطر: 34، 35].

وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ.

أي: وملَّكَنا اللهُ أرضَ الجنَّةِ نَسكُنُ منها حيثُ نُحِبُّ ونَشْتَهي، وننزِلُ في أيِّ مَكانٍ شِئْناه منها، فأينَ شِئْنا حَلَلْنا.

كما قال تعالَى: تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا [مريم: 63].

وقال سُبحانَه: أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [المؤمنون: 10، 11].

وقال عزَّ وجلَّ: وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الزخرف: 72].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا له مَنزِلانِ: مَنزِلٌ في الجنَّةِ، ومَنزِلٌ في النَّارِ، فإذا مات فدَخَل النَّارَ وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ مَنزِلَه، فذلك قَولُه تعالَى: أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ [المؤمنون: 10]))(118).

فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ.

أي: فنِعْمَ ثَوابُ العامِلينَ بطاعةِ اللهِ في الدُّنيا: نَعيمُ الجنَّةِ في الآخِرةِ.

---

(118) رواه البخاري (3342)، ومسلم (163).

وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (75).

وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ.

أي: وترى يا مُحمَّدُ الملائِكةَ مُحيطينَ بعَرشِ الرَّحمنِ.

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ.

أي: يُنَزِّهون ربَّهم عن كُلِّ العُيوبِ والنَّقائِصِ تنزيهًا مُقترِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ؛ محبَّةً له وتعظيمًا.

كما قال تعالَى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ [غافر: 7].

وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ.

أي: وحَكَم اللهُ بيْنَ عِبادِه بالعَدلِ التَّامِّ.

وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أي: ويُقالُ: الحمدُ للهِ تعالى وَحْدَه الخالِقِ المالِكِ، الرَّازِقِ المُدَبِّرِ لجميعِ الخلائِقِ.

كما قال تعالَى: دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [يونس: 10].

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ التَّاسعُ والعشرونَ

ويَليه المجلَّدُ المجلدُ الثَّلاثونَ، وأوَّله: تفسير سُورة غافِرٍ

الفهرس

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتْرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.

لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

نسخة إلكترونية

المغني في التفسير

المُحرِّرُ الجامِعُ لِتفاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا